المختار السالم

عن الذي يثقبُ النَّاي..

والذي تتخثّرُ خطاهُ في نافلة الرَّمل

الطبعة الأولى 2022

جميع الحقوق محفوظة

منشورات
الشاعرة خديجة
بنت عبد الحي

المختار السالم

عن الذي يثـقـبُ النَّاي..

والذي تتخـثّرُ خطاهُ في نافلة الرَّمل

الطبعة الأولى 2022

جميع الحقوق محفوظة

منشورات
الشاعرة خديجة
بنت عبد الحي

الكتاب:

عن الذي يثقبُ النَّاي..

والذي تتخـثّرُ خطاهُ في نافلة الرَّمل

المؤلف:

المختار السالم

الناشر:

منشورات خديجة عبد الحي

عدد الصفحات: 160 صفحة

———————

ردمك: ISBN: 978-2-37711-101-5

الطبعة الأولى: باريس، سبتمبر 2022

———————

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

elmoctar@gmail.com

فهرست

إهداء : ..... ص: 007
1 ..... ص: 009
2 ..... ص: 013
3 ..... ص: 017
4 ..... ص: 020
5 ..... ص: 024
6 ..... ص: 028
7 ..... ص: 032
8 ..... ص: 036
09 ..... ص: 039
10 ..... ص: 043
11 ..... ص: 047
12 ..... ص: 051
13 ..... ص: 054

14..... ص: 058
15..... ص: 062
16..... ص: 065
17..... ص: 069
18..... ص: 072
19..... ص: 076
20..... ص: 079
21..... ص: 083
22..... ص: 087
23..... ص: 091
24..... ص: 095
25..... ص: 099
26..... ص: 102
27..... ص: 106
28..... ص: 109
29..... ص: 113

30..... ص: 116
31..... ص: 0120
32..... ص: 124
33..... ص: 127
34..... ص: 131
35..... ص: 135
36..... ص: 139
37..... ص: 143
38..... ص: 147
39..... ص: 151
40..... ص: 155
سيرة ذاتية:..... ص: 160

إهداء

إلى روح خالي العزيز المرابط بن أبَّاه بن أحمد زايد رحمة الله عليه.

المختار

1

دق الباب الساعة الواحدةَ فجرًا، كانَ "ديبه" أشعث أغبر، قال إنه يعاني من ثلاثية "الدوخة و"الفوخة" والقرم". قصد أنَّ "مشاكله" لا تعد ولا تحصى، وسيتجاوز هذه "العتبةَ المشفرةَ" إذا تحول إلى إسفنجة "للتبغ الحرِّ" وشاي "المبرومة"، وإذا أحسَّ "التَّقليبة" تداعبُ حلقهُ من أسفل.. يرمي امتلاءَ المعدة بفائضٍ مؤمنٍ بلسانٍ يعمل عملَ "حاملة الكلام" في ذات الوقت الذي يُشكلُ بوابة عبور صبُورة على اللحمِ والشحمِ والخبزِ الأصفرِ الــمتوسط.

أربَك عينيَّ بدخان التبغِ، وصبرتُ على صريرِ مواعين الشاي، وقد دفعتُ بمحتوى الثلاجة من اللحم في قدرٍ مقدور.

نشرت مواد هذا الكتاب في زاوية "في ظلال الحروف" التي تنشرها صحيفة "الشعب" الموريتانية (الرسمية).

دخَّن فثملَ، وازدردَ فشبعَ وشرب حتى ارتوى، كان ثالوث التبغ والشاي واللحم سريع المفعولِ في الفاعلِ بهِ.

تنحنحَ مسْتَــفْـتِحاً؛ ليفصح عن السر الذي حمله إليَّ بهذا التوقيت، غير العادي في سلوكِه كرجل يعكس التزامه الأدبي في تصرفاتهِ الاجتماعية.

قال "جئتُ لأدرس الحداثة الشعرية خاصةً آليات: "الرمز، الإحالة... كيف أقوم بتشبيع نصٍّ شعري بكمٍّ هائلٍ من الرموز والإحَالات على أن تبدو القصيدة صادقة غير متكلفة؟".

يا "دَيْبَّه".. الشعر الذي تريدُه غير قابل للتعلم.. هو نتاج تحولات البنيتين: التربوية والتثقيفية.. هو حصيلة ضخمة من "الحظِّ الشِّعري" الناتج عن "عَرَقِ المعرفةِ" بشتى ينابيعها؛ اللغوية والموسيقية والبيئية والتشكيلية والثقافية والفكرية والفلسفية.

لم يعُد الشعرُ لعبةً سهلةً. نعم. غير أنهُ أيضًا يستحيل أن يكونَ مُقرر إراداتٍ، أو تقاطع كلماتٍ.

ولا أعلم فنًّا استعصى على التعريفِ كما فعل الشعر، وعبر عشرة آلاف عامٍ من يوم "الشامِية النائمة ببلفاست".

لقد جاء كل فيلسوف ومفكر بتعريف مختلف للشعر. غير أنَّهم جميعا بدوا كمن ينظرُ صورة النجم في الماء. كما يقال.

يا "دَيْبَّه".. الجواب "جهل ماكر". لنْ أُرمِّدَ تجربةً مُسربةً بمقرابٍ عَمشٍ.

إنني أدخلُ من الباب لأخرجَ من النافذةِ! أرسمُ على المرايا لتُرى أعتم مني.

قبل كُلِّ شيء، أعتذرُ مُسبقا من التقصير، غير المقبولِ، في حقِّ روادِ الأدب الموريتاني.

سيكونُ تقصيرًا أخفَّ ولو بكلمةٍ عن " شطر كلمة" من مجهوداتهم.

لنبدأ من "حيث نحن.. إنكَ "تلميذ بطن"، وشيخك غير فطن".

من أدخل "الرمز" إلى "الشعر الموريتاني"؟

أهو أولَ شاعر! أكادُ ألمسُ تأثيرَ "شناقطة" قدماء فيما ألمسُهُ في "فراء مَنْسِيٍّ"..

تذكرْ أنَّ "كيلَ بعير" أدبي جاء في استخدام المُتنبي لرمزية "قميص يوسف".

فكم وظف قدماء الموريتانيين من "رموز المتنبي"؟

لنترك هذا التحدي لطلاب الأطاريح الجامعية.

حديثا.. استخدمَ الشعراء الموريتانيون الرواد، لأول مرة، "شتلة بذور" شكلت أول حقل "للرموز الوطنية" التي أعيد تأسيس أسطورتِـها من "محكيٍّ شعبي" إلى فخامة وأبَّـهةِ الشِّعر والرِّواية.

نوردُ ذلك مبتوراً.

فقد استهل أحمدٌ ولد عبد القادر برمز "شنقيط"، وكابر هاشم برمز "النخل"، واستخدم محمد الحافظ ولد أحمدٌ رموزا فلسفية كـ"سارق النار"، وأساطير "جن محلي"، واستخدم ناجي محمد الإمام رمزية "أبو عشرين ظفرا"، واستخدمت مباركة بنت البراء رموز: الأودية، الملحفة، الصمغ، القتاد، النهر، واستخدمَ محمد ولد عبدي رموز: "ديلول" و"مدينة الكلاب" وتقابل القتاد والنخل، واستخدمت خديجة عبد الحي رموز "تيبه"، "ديلول"، حواء، الرمادة، وأسس ببهاء ولد بديوه "شيفرة رمزية" (الرمضاء، الطلح، التيدوم، الرمل)، وعمَّدَ بدي ولد أبنو رموزهُ بكتابه "ديلول الحكيم"، وطلسم المكان رمزاً ("كومبي صالح"، "ودان" ، "أوداغست"، "كدية الجل"، "تشله"... إلخ).

ناهيك عن حزمة رموز كثيرة عند شعراء آخرين ("بابه غوره"، أفعى بنت الصطيلي، الرباط، المرابطون، اليوسفي، العامري، الحضرمي،.. إلخ).

غير أنَّ إحياء الرمزِ لا يقلُّ عن ابتكارهِ، وبحول الله ستكون لذلك حكاية في ظلال أخرى.

2

في الظلال الماضية، أشرت إلى استغلال رواد الأدب الموريتاني المعاصر لـ"الرموز المحلية"، وبالطبع تتفاوت "تلك الرموز" في القيمة الفنية والحمولةِ الفكرية.. أما "عَولمتها" فذلك شيء آخر، يرتبط بتثمين المنتج الأدبي نقدا ودعاية، فمن كان يتصور أن "روايات رديئة مرقعة مسروقات" تتحولُ إلى "أدبٍ كونيٍّ" بإقحامها كذخيرة في "حرب الإمبراطوريات". غالبا الذخيرة أدنى قيمة من الهدفِ.

هناك أحداث في الموروث الوطني، تصلح للتدوير نحو حمولة تلامس سقوفا عالية في رمزيتها الفكرية والفلسفيةِ.

ولقد حاولت النبش، مجرد النبش، عن بعض هذه الرموز في رواية "وجع السراب" عبر سردية "حوت الصحراء".

يصف المشهد الروائي قرية هادئة على الشاطئ، قبل حدوث دوي هائل غير مسبوق إسماعا.

لاذ سكان القرية بالفرار، وسط عويل النساء والأطفالِ، وخطى الرجال المخفقةِ في مواجهة الموقف.

احتمى سكان القرية بالتل الرملي الشاطئ، وبدأوا استطلاع "ذلك الجسم الهائل الذي حجب البحر عنهم".. وتبدأ الصدور الفازعة رعبا، تفسيراتها: "لعله كوكب سقط.. يشبه الكدية.. ربما سفينة جن جنحت إلى اليابسة.. قد يكون انتفاخا في الأرض جراء زلزال.. ربما عفريت سليمان خرج من زجاجته"..

في غرائبية اللحظة يتحرز السكان بقاعدة "على المرء أن يأخذ أبعدَ مسافةٍ ممكنةٍ من المجهول".

ثم يحدسُ "السائد"، أحد أبطال الرواية، أن خطر ذلك الشيء الغامض إما أنه انتهى، أو لا مفر منه.. قال في نفسه "مضت حياتي من تهور لآخر، فلم أتهيب الآن؟".

غامر وعاد ليقول: "إنه كائن كبير، إذا تنفس تمدد حتى أزاحني عشرة أذرع... لا يمكن أن يكون حيوانا بحجم جبل وإلا لشرب البحر وأكل ما على البسيطة".

وأشرقت الشمس مبددة بعض الغموض "الكائن الجبلي هو حوت ضخم بطول وعرض وارتفاع مئات الأذرع، كان قد قفز إلى الشاطئ ليموت على اليابسة وما زال يحتضر، وكانت أنفاسه البارحة

تقذف السمك والماء من أحشائه بكل اتجاه وهذا ما فسر مطر السمك الذي تساقط على" السكان.

تحققت مخاوف "السائد"، وانتشر النبأ فتوالت هجرات جماعية على المنطقة لمشاهدة أسطورة "الجبل الحي".. سيل البشر يتدفق، كان البعض يتفرج من بعيد على "الجبل الحي"، والبعض يلمسه بيده، وآخرون يتسلقونه، ودخل رجل في منخر الحوت ووقف داخله وأذن.

لقد هاجر "السائد" بحيه إلى مكان آمن من تأثير المهاجرين، ولكن مجتمعا جديدا تأسس قرب "الجبل الحي".. واستمرت التفسيرات.. حيوان كبر عبر آلاف السنين.. سقط من "سفينة نوح".. "غول" أو "تنين" أو "عنقاء"، وقيل "جلد ضخم استنبِتَ بعناية وبداخله حياة أخرى بها أقوام ونساء على أشكال غير التي نعرف".

وحل موسم المطر، و لم تمطر السماء، لا شيء غير الأرض المسكونة بالريح والرمل والسراب.. كشر الجفاف عن أنيابه.. وأمسك البحر بعد هجرةِ الأسماكِ. وما زالت العقدة تمسك جميع خيوطها، ويا للعجب حين يشتعل في رؤوس الناس!

أخذ القحط يغير الطباع، فقرر الناس أن يأكلوا "الجبل الحي".. "يكفينا عامين على الأُقل، حتى تعود الأسماك، أو تمطر السماء".

وأخيرا،

"انغرست السيوف والخناجر والفؤوس في أطراف "الجَبَلِ الحَيِّ"، وارتفع دخان الشواء كالأعاصير الزرقاء، وتمددت البطون شبعا.. فسرى شعور غريب بالحماس، وأخذ الناس يغنون ويرقصون"، واستمر المجتمع بهذا الحال.. ثم تدخلت غريزة الاحتياط.. فقرر القوم سحب "الجبل الحي" من مكانه، خوفا من أن يسحبه الموج ذات يوم.

وهكذا "كان يوم الجمعة الثاني من شهر "الأبيض الأول" من "عام حوت الصحراء" يوما تاريخيا، فقد ربطتْ كل الدواب الموجودة من جمال وبقر وحمير وكلاب بحبال قوية إلى جسم الحوت الضخم، وشمر آلاف الرجال والنساء والأطفال عن أذرعهم مساعدين الدواب في جره، وبعد ساعتين وجهود مضنية تمكنوا من سحبه مسافة ذراع... وفجأة حدث دوي هائل أصم الآذان، اهتز جبل اللحم العملاق وقفز طائرا ليسقط بعيدا في البحر، ويختفي ساحبا معه كل الدواب المربوطة إليه... وسط حالة من الذهول انشغل فيها كل شخص بنفسه وهو يهيم على وجهه غير مدرك لما حدث.

– لقد ذهب جبلُ اللَّحْمِ الحَيِّ بكل دوابنا.. "إذا غفتِ اليقظةُ صحا الشعر".

3

أي اغترابٍ طوعيٍّ في الفضولِ؟ لا أدري!

في حدود ثمانينات القرن الماضي، كان الطفل "أحمد" بين نعمتين عظيمتينِ.. نعمة الاقتراب من الحصول على الإجازة في حفظ القرآن الكريم، ونعمة ثروة عائلته من "الكسب الأبيض"، التي تطلق على الإبل والغنم.

لا يعلم "أحمد" أنهُ سيعاني مشكلة كبيرة حين تلبسه الشعر، فلكثرة ما قرأ منه صار لا يرضى بمستوى ما يقرضه من الشعر.. ويا ليته "رَدَّها" على "بالوناتِ الوهمِ الشعريِّ"، التي "تعتقلُ هواء بلا عفاريت".

من مكانته "كشاعر على الصامتِ"، وقع "أحمد" في هواية "فنِّ الخط العربي"، فأدمن الرسم بالحروفِ في محترفٍ صغيرٍ في بيته.. لكن "أحمد" قدر له أن يتورط أكثر مع الجمال في مسيرِته، فجرفهُ مَجْرًى آخرَ نحو مصبِّ الموسيقى ليتخصَّصَ في "أزوان".. وهنا دخل "حياة الكبار" ومشاكل الثقافةِ والفنِ والفكر و"شيء من الأيديولوجيا الحالمة" بيقظةِ الاتزانِ بين "الآخرين".

في طفولته، كانَ "أحمد" حريصًا على التقاطِ ما أينعَ من أحاديثِ الكبارِ، وكانَ معلمهُ الأول هو والدهُ العالم الشريف أحمد بن صالح..

كان ذاتَ يوم في ضواحي "أوكار" بالحوض الغربي، وكما تعلمون "أوكار" جزء من المجابات المُمتدة بين مقاطعتي "تمبدغه" بالحوض الغربي و"تيشيت في "تكانت".. "أوكار" منطقة شموخ الكثبان الرمليةِ الواقعةِ في حدودِ سلسلةِ الجبالِ المعروفةِ بـ"الظهر".

عفوا، لا تنسوا أننا لسنا هُنا في درس جغرافيا.. وأنا لا أريدُ أن يسخرَ مني من لا يزالُ محافظاً على المَسَافةِ مع الشجرةِ المحرمةِ.

في "الظهر".. أنواع الصخور والحياةِ الصخريةِ.

لكن في ضواحٍ بعيدةٍ من الصخُور تحضرُ هذه الأخيرةِ في حياة الناسِ على شكل "صوَّانة"(التيمشه)، وهي قطعٌ صغيرةٌ ترصُّ مع الزنادِ وقُطْنِ "القَدْحِ" (يور) في محفظة جلدية تحظى بعناية خاصة، لأنها الوسيلَةُ الأولى لإشعال النار لأغرَاضِ الإنارة في الليل والطبخ وإنتاجِ الفحمِ وحرق البخور وتسخين المحلاب ومسامير الكي والمياسم.. إلخ.

غير أن اختيار تلك الحجارة، يخضعُ لمعايير كثيرة.. وهناك مختصونَ في نوعياتِها وجودَتِها ووفرةِ شرارتها.

يتذكر "أحمد" أن والده أخبره أنَّ أحجار المفازة التي تمر عليها ثلاث سنوات دون المطر تفقد شرارتها أو يضعف فيها مستوى الشرر إلى أدنى حد، فلا تفي بالمطلوبِ منها.

سبحان الله.. حتى الحجارة تفقدُ روح الشرارة فيها إن لم يصبها رزقها من السماء ماءً.

ذكرتني قصة المطرِ والحجرِ والشررِ، هذه، بموضوع "المعرفة البيئية التراثية في مجتمعنا القديم".. لقد كانَ مجتمعًا بيئيا بالفطرة والتجربة والواقع.

وسواء كان صحيحًا ما نقل من تلكَ المعارفِ والخبراتِ المتراكمة على مر الأجيال والحاجة، أو كان ظنا وتوهما، أَو خطأ، فقد آن الأوان لنقدحَ شرر الإنذار من اختفاء ذلك "التراث البيئي" من معايشة الناس وتجاربهم في هذا الإطار.

إن ما لدي من بال، ولا داعي للسخرية، مشغول جدا بقضيةِ "البيئة الثقافية الموريتانية"، التي لم يعد لها وجود، بنسبة كبيرة، إلا في مرويات يتراجع منسوبها يومًا بعدَ آخر جراءَ رحيل "المكتبات الصوتية التي تمشي على قدميها". وأكثر المتبقي من تلك الحواضنِ يعيشُ بعيدًا في مفازةِ الرعي والفلاحة، ويندثر من خطابها اليوميِّ ما كان مألوفا من معرفة بيئية كان دافعها الحاجة والاستغلال إلى تلك الأدوات.. وكمثال، أين اليوم، هذا الذي يحتاج "تلك الخبرة والأدوات" القديمةَ في ظلِّ توافر "وسائط الإشعال" التي تجاوزت حرارة طبعِ الكبريتِ إلى ولاعاتِ الليزر... إلى ما هو أحدث. وإذنْ، ما بالك بما تأبط سفوحَ النسيانِ من مرويات وأمثالٍ وحكم وصور أدبية في "الخطاب اليومي السابق" المندثر!

4

كبوة بلا جوادٍ! ودمغة بلا ضربة!

ذلكَ الـمَساء.. عندما خطوتُ نحوهُ خُطوتي الأخيرةَ ولمستهُ بحذرٍ شديدٍ.. لم أصدق! نسيتُ الـمُهمَّةُ من جِئْت لأجْلهَا.. وانشغلَ بالي أكثرَ عنِ الخوفِ من دُخُولِ مكانٍ موبُوءٍ في الذَّاكِرةِ.

كان الوقتُ عَصرًا، ومن الخطير وجود شخص في هذا المكانِ وفي هذا "التوقيت المسكون".

نظرتُ حولي.. لم أرَ شيئًا.. إلا الفراغ.. بطحاء جرداء، لا أثر بها لأي كائنٍ، حتى تلك الآثار الصغيرةُ، التي نُصادِفُها غالبًا في كل مكان كآثار اليرابيع والحشراتِ! ركزتُ نظري نحوه مرةً أخرى، كان هو كما أذكره سوى خضرته اليانعة التي تثيرُ العجب.

يقولُ المثل الحساني "أغيب من الشفقِ"، وغياب الخاطرِ أكثر شفقية حينَ تُـدثِّـرُنَا بذلةُ الغُرُوبِ بحياكتها الخُرافيةِ.

والآن؛ ما بالأفقِ نجمٌ ولا هلالٌ، والعودةُ إلى الحيِّ تعتمدُ على الخبرةِ بدروب الظلماءِ، حيث الفطرة والغريزة والتجربة والحَدْس.. وعوامل أخرى لا تسعها المجلدات كالدخان القادمِ من بعيدٍ، والذي يمكنُ من طبيعتهِ تحديد مسافة الخيام وعدد النيرانِ الموقدةِ.. تلكَ مهمة منظومة "الأنف الريفي" الذي عليهِ أن يكُونَ حسَّاسًا غير قابلٍ للخَطَأ، فالخطأ في المفازاتِ المُلغَّزَة، يعني في أحسن احتمال أن تَتَكَوَّمَ مُستدفئًا بجزع خاوٍ، أو تحفر لتصل الدفء بينَ طبقاتِ الرملِ، وتنتظر الصباح لتستعين بضَوئه.

قلة من الناس تَجْرُؤ على دُخُول الأطلال، فالجنُّ يسكنون ديارَ الإنسِ حين يرحلون عنها، تؤكدُ الأسطورة.

أما أنا فقد رجعت إلى تلك الأطلالِ مساء، لأنَّ المحظرةَ تشغلني صباحا.. و"عائشة" وعدت بإعطاءِ شاة سمينة لمن يأتيها بـ"خاتمِ الحظِّ العائليِّ" الذي ضاع منها في "دارِ الصيفِ".

غامر قليلون، وعادوا دون "خِفٍّ".

قال "عبود" إنه بحث يومين كاملين، ففتش الزريبة، وغربل آثار موقد النار و لم يجد غير الرماد المندثر، شديد الخطورة، فالرماد دماغُ النارُ.

وأما "ميمون" فقال إنه بحث بكل مكان رجحته له "عائشة" بما في ذلكِ مكب الدباغة.

وأنا كدت أنسى قصةَ الخَاتمِ والجائزة.. ما كانوا ليأذنوا لي، فغافلتهم وغامرتُ.. الآنَ أقفُ في مواجهته مباشرةً، أنظرُ إليه، وتكادُ تُـرْشِدُني وساوسي.. فأيُّ روح تصعدُ إلى رأسِه لتخضرَّ به حياة أخرى في مكان آخر.. وبكل هذا الجمالِ، وهذهِ الأحاديةِ الغرائبيةِ المثيرة!؟

.. لماذا يقطعونك من شجرتكَ في تلك الغابةِ، لتموتَ فيجردونك من قشوركِ ويحفرون لك في هذه الربوةِ الجرداءِ ليدفن ثلثكَ واقفًا فيشدُّون حبالَ خيمتهم إليكَ، وحين يفكُّونَ قيدك يرحلون عنك خشبةً يابسةً، ثمَّ ها أنتَ تُبعثُ حيا دون شجرة ولا غابة، يتفتح فَرْعَا رأسِكِ بالورق الأخضرِ!

كان الموريتانيون الأوائل يقطعون غصن بشام فيصنعون منه عمودا يثبت كرافعة للطنب الرئيس للخيمة لتأمينها من خطرِ العواصف، وحينَ ينزلُ المطر ويرحلونَ من "دار الصيف"، يعاودُ ذلك "الغُصنُ البشامي" نباتَهُ، فيخْضَرّ رأسُه ليعودَ إلى الحياةِ في طور التحولِ إلى شجرةِ مثمرةِ، فغابة فيحاء.

وهكذا حين مرَّ ذلكَ "الشَّاعر الحساني" بآثار المنازلِ القديمةِ المقفرةِ رأى عمود "التَّـيگاگ" وقد نبتَ واخضرَّ بعدَ رحيلِ الأهلِ والأحبَابِ.. فأي "لوحة شعرية" بديعةٍ عن هذهِ الظاهرةِ، التي تحبسُ الأنفاسِ موعظةً وتفكيرًا.. وطبْعًا تحبسُها "إدانة" للحداثيينَ

المتجاهلينَ بيئتهم، التي تصلح كلُّ جزئية فيها للتحول إلى "تيمة" إبدَاعية فريدة، وأسطورة حية على صريرِ ريشةٍ أو مرمى عدسة.

لقد وظفنا صخرةَ "سيزيف" حتى قصمت ظهورنا، ودوَّرنا رؤوسنا مع "الطواحينِ".. ولكنَّنا نستمرُّ في تجاهل أساطيرنا الحيةَ وعجائب بيئتنا التي فيها تيماتُنا.

اليوم.. يندرُ أن تجد موريتانيا يعرفُ قصةَ "الغصنِ البشامي".. أما مصير خاتم "عائشة" وشاتها السمينةُ فربُما لا تهمكُم الآن.. ثمَّ إنَ مهمتي هيَّ أن أبدأ القصصَ لا أن أنهيها.

5

ليست "الأنا" إلا البيتَ الزجاجيَّ لمن افتقدَ حسَّه الفطريَّ. بمعنى آخر في "اللامعنى"، تبقى "الأنا" مرآةً عاكسة للضعف لا القوة، وللهشاشة لا الصلابة، وللسلوك والتفكير الغريزي لا الوعي والرقيِّ.

"الأنا" رتقٌ كبيرٌ في شريان "العقل الفرديِّ"، ومع ذلك لا بدّ من هذه "الأنا" لوقفِ النزيفِ العَابرِ في "سُقُوفِ الهاوية" بين "الأنتم" و"الـهُمْ".. أما تلك "النحن" التقسيطية الأخرى فليست إلا تجميعًا لصفاتِ "الأنا" في حالِ تسويرها بالتمويهِ وتطهيرها بالسرابِ.

....

إن الغرابيلَ لا تُمسكُ الماءَ لكنها لا تزيدهُ!

في "الزمنِ الأزرقِ"؛ "تستوي" ألوانُ الظِّلالِ ومُظلليها؛ يستوي الغروب والاغتراب، تَـتـلثمُ الرمضاءُ بذممِ بقيةِ الخُطى.. ذلكَ دربٌ عسيرٌ في نفقٍ غير حسيرٍ!.. وكانَ سيفتح "منفذا آخر" في الصدعِ الـمَصدوعِ لو انتبذَ رمل برملٍ، وتحرَّفَ حَرْفٌ بحَرْفٍ.

لشعراءِ التيدوم أثرٌ خافتٌ في الرؤيا؛ مُندَرِسٌ في "العلندائية".. في هذا الزَّمنِ تحديدًا؛ يكونُ لزامًا على البقية الصالحةِ من الفلاسفةِ، أن تعيدَ قراءة "طبقات الشعراء" بعد ما نكلت بهم أرصفة المدينةِ، وأجبرت حظهم على النَّقْعِ في كأسِ الصُّدودِ.

أي؛ نعم. الفلاسفة يُثْبِتُونَ ويَثْبُتُونَ ويتَثَبَّتُونَ بمقدارِ ما انَغَرسَ من أوتادِ خيمةِ عكاظ! والفلاسفةُ لا يسأمونَ "الاجتراح" الغيميَّ في علوِّه الأخيرِ... في حالهِ الملتبسِ بالشِّعرِ.. ألا يَتشابَهُ الفُردُ والسَّمَادِيرُ في أُفُولِ المنظرِ والمظهرِ؟

لقد فشلَت البشرية في تسليع الشعر على مدار الحقبِ.. بينما نجح الشعرُ في "ترفيع السوقِ" إلى "مكسبٍ حَضَاري" حتى انتبهَ ابن خلدونَ إلى أنَّ حدود أي بلد تمتدُّ إلى مكان وُصُولِ بضاعتهِ.

لنقل ذلك بشجاعةٍ مورفينية..

الشعر يدخل الأسواقَ ليرقيها من العَبَثِ، ويُطهِّرها من رجسِ الشيطان.. مربطُ فرسِ الشِّعرِ في السُّوق أيضا، ولولا ذلك لاستولى إبليسُ على الشَّطر الآخر "من الناس".. ولسجلَ كل الأرباحِ باسمهِ.

تاريخيا؛ أبكرَ الشِّعر بإنقَاذِ سُمْعَةِ الأسواقِ، ولولاهُ لكانت مجرد مسلخة للأرواحِ البشريةِ. ولقد حدث ذلكَ بفضل رُؤْيَةٍ فَلسفيةٍ لم يتفطنْها أكثر قراء التَّاريخ دقةً في "مُقابَسَةِ النقطةِ والفاصلةِ".

أما أنتم فتعلمونَ ذلك.

كانَت عكاظ من أشهر أسواقِ العربِ القديمةِ، وتُصنفُ من "الأسواق الثابتة"، التي نافست "الأسواق الموسمية"، التي كانت تقام عند القرى مثل "سوقِ حجر"، و"سوق الشحر"، و"سوق هجر".

"العقلُ القَـيِّمُ" على تلكَ الأسواقِ؛ كبير على جلبابٍ لم يغزل صوفهُ بمخرزِ الفلسفةِ، إذْ نجحَ في جعل الأسواق، قبلَ العامل التجاري، تستقطبُ "الاهتمام الثقافي"، الذي كانَ مِجْدَافًا لقاربِ "الثورة الذهنيةِ"، التي ارتقت ببدائعها الأدبيةِ والفكرية إلى مستوى كبير جدا.. كانَ بشكلٍ ما تحضيرا أو ارتقاء أو ترفيعا لـ"العقل الريفي" من أجلِ فهمِ واستيعَابِ الـمنحنى الحضاري التالي لما بعدَ اخضرار منازلِ بنت أبي ذؤيب.

.. وأمَّا اليوم؛ فكم "نحن" بحاجةٍ إلى غرابيلِ "الأنا"؟.. فالناس تستحق أن يكون لها روحٌ من "أثرها".

لا أريدُ الخوض في "لغة بياناتِ".. الناس في هذا البلد من حقهم أن يكون لهم "سوق ثقافية"، بل لماذا لا تكون في كل مدينة سوقها الثقافية، على أن ترقى فوق مستوى "البيعِ "بالمفردِة" والجملةِ".. إلى تقديم "المنتج الثقافي الطازج"، وبأنماطه المادية واللامادية... وهكذا يرسم الرسّامُ ويبدعُ الصّائغ، ويستعرض الطبّاخ مهاراته، وتجري

المبارياتُ بين العقول والأبدان، فيسلو الإنسانُ ويكسب الفنان والبهلوانُ، ويتآلف الأحباب والخلان، فَيُعزفُ العازفُ، ويغني المغني، وينشدُ المنشدُ، ويروي الراوي، ويُنعنعُ اللحنُ المسافة بين الشاعر والغاوي.

إنَّ شيئًا من ذلك قد يسرع خروج الأجيال الموريتانيةِ من ركام "العطب الممنهج" الذي جعلنا نخربُ ذواتِنا بذواتِنا.

إنَّ التحديَّ الحقيقيَّ ليسَ في إنقاذِ الغارقينَ في البحرِ.. بل إنقاذ أولئكَ السابحينَ في السرابِ.

6

لا أعرف متى رأت النور أول ممحاة؛ فقبل التاريخ الحديث وصناعة الممحاة من خلطة المطاط النباتي والكبريت؛ استخدام البشر قديمًا الخبزَ المرطبَ بالماء كممحاة، كما استخدموا ألواح الشمع وأحجار الرمل لمحو الكتابة على الرقاع والبردي. تقول المعلومات. لا تَهمنا تفاصيلُ ذلك! بل يهمنا ما وفرته "الممحاة" على الكُتاب والرسامين من جهد.. كانَ ابتكارها حاجة اقتصادية ماديا ووقتيا.. وأقول "وقتيا" لأنَّ التطور حصل بـ"تسليع الوقت"، الذي يبقى أثمنَ ما يملك الإنسان، رغمَ استخدامه غالبا في تذخير النسيانِ!

ولكن الوقت لا يضيعُ مُطلقًا، بل نحنُ من يضيع ثانية تلو أخرى. الوقتُ شيء عجيب، وإن حاولَ العلماء "قمقمتهُ" داخل أطرٍ نظريةٍ، فلم يعتقلوه و لم يبلغوا "ماهيته"، وإن شبه لهم "حيِّـزًا وهميا" في معادلة قائمة على تخمين التناقض في التخمينِ.. فكان لا بدَّ من "ممحاةٍ" تنبُضُ بقلبٍ فارغٍ.

جاءت فكرة الممحاةِ بدافع تصحيح "الأعطاب" في "المكتوبِ" وتصويبه وترقيته من الداخل وربما من الهامشِ.

ولكن ما ضرر الممحاة! أهيَ "أداةُ صَالحة" أم هي "خطاءة" ذات "حدين"؟

ما طمستهُ الممحاةُ أهمُّ مما أبقت عليه، وما غطى رذاذها من عيوبٍ قد يكون أصلح مما تركت بعد عملية تجميل "الأصلِ الذي تحول إلى فرع".

نعم. لكل كاتب ولكلِّ رسام ممحاة. إنها قدر لا مفرَّ منهُ، ولقد تسببَ "المحو" في "تصحير" مسافاتٍ خرافية في مسوداتِ التأليفِ منذُ الأزمنةِ المسكونة بـ"الهجائية الأولى" التي تم صهرها من أجل الكتابة على خاتم الخطوبة، وتثبيتِ الطلسم على ألواح المعدنِ، ثم على الطين، ثمَّ على جلدِ الحيوانِ، فأوراق البردي، ثم الأوراقِ الحديثة... ويبدو أنَّ الكتابة تتطورُ بالتوازي مع مرونة المادة المكتوب عليها.. أما "الممحاة" فقد اتجهت منذُ البداية في ذات المنحى، وكأنَّ هنالكَ "شيئا ما مشتركا" أكبر من "التفكير الرخو".. "تفكير المُستندِ" المُبيَّضِ، الذي فقد "وجهه الآخر" إلى الأبدِ، بفعلِ الهرولةِ نحو "الكمال، التفرد، الديمومة، النقاء، البقاء، الخلد".

هناك "قبحٌ جميلٌ" يطمسُ كلما تحركت الممحاةُ كما يتحرك الغُرُوبُ.. هناكَ ما هو أهم من "الخطأ"، و"العثرةِ" و"التقصير" و"العجز" و"الفشل".. خسارة مساحة "النقص" أخطر من ربح مساحةِ "الإتمام"... الجيدُ ليسَ جيّدًا ما لم يُعمَّد في صومعةِ الخللِ.

في لحظات تغفل فيها الممحاة، أو تَّمحي هي ذاتها، يكون ذلك الوقت الأكثر ملاءمة للثقة في صدقِ المرايا، فالنية **مُرْئِلَة** المرْءِ حيثُ هو بخصلةِ النقصانِ.

هناك ممحاة ضخمة لا نراها لشدةِ بروز آثارها، تلك التي طمست أمَمًا وحضاراتٍ، وشعوبا وجماعاتٍ وبالطبع أفرادًا.. لكم زورت الممحاةُ التاريخ وراوغت بمشرطها الحادِّ فقاعات الجُغرافيا النافيةِ بأداة أو من دونها.

الدرسُ أكبرُ من الاستيعابِ؛ وقد نكونُ ساذجينَ أكثرَ لو خُيِّلَ إلينا لحظة واحدة أنَّ الممحاة لا تتقمص روح ضحاياها فتنمو بها سجيّةُ الافتراضِ.

ما دمتُ أكتبُ اليوم "ضدَّ الممحاة" فلأني مرعوبٌ من حجمِ العبثِ الذي تقوم به "آلية تنقيح" النصوص الإبداعية. لقد مات الشعر بالتعديل وبتعديل التعديل.. مات الرسمُ بتغيير فِطرتِه وعقلنةِ سذاجتِه وستر عيوبِه.. وليس الوترُ بأحسنَ، فقد تحولت مهنة العزفِ

إلى "احتيالٍ سمعيٍّ"... و للأسف؛ يقترف ذلك الخطأ باسمِ الكمال.. فمتى كانَ كمالُ النَّايِ بسدِّ ثُـقُوبِهِ؟!

الحدسُ البريُّ هويةُ الحسِّ فينا.. فطرة مدسُوسة في رواقِ الفُضُولِ.. مراوغة القيظِ في اغترابِ الظلالِ.. ولقد كانَ الحدسُ دَوْماً عَمَلاً مَحفُوفاً بأسوَارِ اللَّامعقولِ!

واللامعقول كُلُّه أن يتفرج المرءُ على أولئك الشُّعراء الذين لا همَّ لهم سوى ترفيع نصوصهم نحو هاويةِ الممحاةِ.. فسلامٌ على ما يطمسُون.

7

"لا تكتب لنا بالمباشرِ!.. على طريقة "وعليه".

هذا يعني؛ أن "لغة الكتابة" التي ملّها الناسُ، وباتت مشردةً تعتَطِفُ معطفا مهترئا عندَ "أبي ظفر"، تفرقَ حبرها دون كرامةٍ ودونَ حقوق بينَ "السقوف المثقوبة".. اللغة لا تقبلُ الانحناءَ ولو كلفها ذلكَ الموت بشكل غير لائق كمُرطِّبٍ لمجرى الأنصابِ. غير أنَّ "أي لغة" تُقتلُ غيلةً تَجْعَلُ من جلدِ صاحبها ضريحًا؛ وتتخذُ من عِظامهِ معازفَ لبسترَةِ الفناءِ، وبذلك تمحوهُ من حياة الذكرِ، وتخفيهِ في موت الأثرِ فلا يعلمُ عنه رقباءُ "اللامكان" أيَّ "نقطة" معكوفة على امتدادِ المَتَاهِ المَنْسِيِّ؛ المتاه المغبرّ بأسماءِ السنابكِ؛ المخللِ بأحناءِ العواتكِ.

يُرشدُني "ديبه" إلى "أطلاسٍ" مُطَلْسَمَةٍ؛ "أطلاس" لا هويةَ في هويتها قبلَ "النَّجْعَتَيْن": نجعةِ الطلحِ ونجعةِ النخلِ.. وإلا تشردَ "التحولُ"

المتدثر بِرُسُوخِهِ في سُنَنِ الغثاءِ خَطَأً، وتَخَثَّرَ في نافلةِ الليلِ "وَسَنَا حالكًا" يرتشفُ من معطنِ أخاديدِ الرمَالِ صَدَأً.

في موهبةِ المكانِ الروائيِّ، تنتـفي حُدودُ المكانِ، المكان نفسه سرعان ما يَنْبَتُّ من حدودهِ إلى "أبعادِ التأثيرِ" حتى إنه "يحرر" مخرجاتهِ من الانتماءِ الثابتِ، ليس في الذاكرة فحسب، وإنما في الجهة والوجهةِ.. مثلا؛ نتعلمُ من "المطر" أن "شيئًا مشتركا" يعوزنا فهمه بسهوله ويصعبُ علينا تجاهلهُ.. ولا نحاجج نسريةَ الخيبةِ في ذاتها إذا لم يسْقِ المطرُ مَسقطَ رأسهِ.. فالمطرُ يصعد من مكان، ويعبر مكانًا آخر ويهبطُ في مكان ثالث... المطر ثلاثي المكانِ، لكنهُ خرافيُ الأثرِ والتأثيرِ.. لا نحتاجُ ثناء على الـمَطَرِ؛ فالمطر أغنيةُ السَّماءِ الخالدةُ.. بقطرهِ تَـهتز الربواتُ فتنبتُ أعشابًا وأشجَّارًا؛ تحمل أطيارًا، تغني زجلًا وأشعارا.. المطرُ يَمنحُ ثاوية البيدِ إزارًا، ويُظِلُّ مديحَ الحقلِ أزهارًا، فإذا بالقفارِ الثّـيِّـــبَةِ مرجئة الخطامِ تُجِلُّ إغمَاءَاتِ الصَّحوِ أثرًا ديَّارًا، ومِعصمًا سوَّارا، إيلافًا لا إخْلافًا ولا إرْجَافًا..

"ديه"؛ أيها المخبتُ صيحتهُ في جلدةِ طبل؛ المرتفعُ إلى جرجرةِ السَّدلِ، المغتسل عن الصحنِ بأدمعه ظَمأً.. قلْ لنا شيئا حَـمَأً، أو اخرسْ لتحتملَ في ظُللِ السّرِّ نبأً، لم "يَتَـخَـلْدَن" خبرًا ولا مُبتدأً.

الغنيمةُ الهجرة يا صاحس!.. حتى ولو في "هيمنة الدَّفع".. بوسعنا أن نستظهر البُعدَ الشبحيَّ في نداءٍ ما.. نداء **"يُزكمِنُـهُ"** من بين حبالهِ

الصوتيةِ "نبلُ اليَابسة".. بينما لا تتدثر الحنجرة ولو باستعاراتها من دفء "المتلازمتين"..

في "الوادي الأعوج" تخفتُ الخُطى، تستبطنُ هوية البلسمِ ترياقاً يقاومُ كي لا يقاومَ خببَ "النقطتين" أو رفْسةَ "الفاصلتين"، أو، ولربما، سربَ أقواسٍ مستقيمةٍ في اعوجاج ظِلالِها، أو فرْدَةَ ضميرٍ استُحضِرَ في الـمُختزَنِ من البدعةِ الخفيّةِ..

.. كلُّ الدفينِ السَّاطع في الجناح المهيضِ مسَافةُ إسفنجةٍ في الفراغِ بين شطري بيتِ القصيدةِ..

ما كانَ لشاعرٍ أن يَسْتَبرِئ فتنةَ الـمحنةِ، ولا أن يستظهرَ الأزمنة الجشعة التي ما تزالُ ضائعةً في الخَاطرةِ والخاصرةِ.

قُـتِـلَت اللغةُ باسم الشعرِ!.. وسار القتلةُ منضبطينَ حول الهامشِ وفقَ وصيةِ الـمُومياءِ، وقبل زماننا هذا بألفِ عامٍ كان "الـمُتَـفيقِهُ" الذي نقضَ غزلهُ باسمِ الدفاعِ عن الشرفِ ينازلُ نعشه دونَ أن يشعرَ.

وكان الشعراءُ ثلةً منَ الـمَصلوبينَ على "وشيجة العبثِ" الـمُخْضرِّ الآسنِ.

ولقد نفي الرسام الذي نقع الرِّيش على اللحمِ في اللوحة، التي لم تكن برُمَّتها سوى "دجاجة في زجاجة".. وكانَ قد رسمها رسْمًا

مَائيًا خَفيفا وقابلا للتعبئة بأفقرِ "لونين".. اللوحة الـمُصابةُ بفقرِ اللونِ لا تكشطُ عن الـمِلح زُبْدَتَهُ.

في "اللا" لغة؛ يقتبسُ النَّـفيُ ليمُونةَ الرُّوحِ، يَشهدُ الحطبُ على الحطاب، وتبتعلُ الغيلانُ وسمَ "الواواتِ".. متحدثة باسم ما بقيَ من حجر في البشرِ.

هو الشعرُ هُدْهُدُ اللغةِ.. مهدُ القلبِ وخاطرُ الحرفِ.. "حرف للغاية".

8

"على مشارف التَّناص"...

لقد وصل متأخرًا؛ كان "خارج الـمَسح"، الذي قدمه الوافدونَ إلى القرية.. سمعنا أنَّ المنزل الذي أضيء نوره الخافت، قبل قليل، بيع منذ أشهر، منذ اختفاءِ مالكه، الذي وصل هنا أيضا بطريقة أكثر غرائبية. عجيب أمر هذا المنزل. كان مكانا للفسحة المسائية بضواحي القرية، قبل أن يصرَّ "نير" ذات يوم على شراء تلك "التَّلة التي لم تبلغ الحلم".. ولماذا يشتري ما يمكنُهُ الحصولُ عليه مجانا من "شيخ القرية"، الذي اختار مكانها، وأغلبية سكانها!.. لم يفلح عرض الهبة. فاشترى "نير" القطعة الأرضية، وخلال أسابيع شيَّد عليها منزلا مؤلفًا من غرفتين ومطبخ وحمام وحوشٍ كبير أقام بجانبه الشرقي مزرعة صغيرة للخضار، ما إن نضجت أُولى ثمارها حتى غادر "نير" إلى المدينة، وأوصى "السائق" بمنح محصول المزرعة لثلاث أسر من فقراء القرية.

لم يعد "نير"، وإنما وصلت منه رسالةٌ شفهيةٌ مُبفادُها بيع منزله إلى مواطن أجنبي.. هذا الأخير وصل وأمضى أسابيع داخل المنزل يظهر من حين لآخر، أحيانا يجفف الملابس، وأحيانا يعتني بالمزرعة،

وشوهد مرة فوق السطح. والغريب أنه لم يزر أي شخص بالقرية، و لم يسْعَ للحصول على الماء من خارج البيت، كما أنَّ الذين زاروه لاستطلاع أحواله عادوا دون معلومات تذكر، سوى أنه شخص قليل الكلام، يجيد بضع كلمات من اللهجة المحلية، ويرفض أي عرض مساعدة بالطعام أو غيره.. قيل إن اسمه "تارو"، كان طويل القامة ونحيفا، متعرقا، تكاد العروق البارزة بكل مكان من جسمه تحولهُ إلى شبكة أسلاك عنكبوتية شديدة التداخل.

غادر "تارو" بنفس طريقة "نير".. وهذا المساء نزل من سيارة النقل الخاصة بالقرية مع الغروب، شبح رجل، يحمل حقيبة كبيرة، تكاد تخفي رأسه مع ظهره. قال "السائق" إنَّ المالك الجديد للمنزل الغامض ركب معه "وكان مُعمّمًا بلثام يبقي ملامحه بعيدا عن الملاحظة حتى حين يشربُ الدخان.."، وقال مساعد السائق "لاحظت أنَّ الرجل الغريب يستخدم غليونا ذا ثلاثة رُؤوس". وهذه ظاهرة فريدة بين المدخنين وغريبة بين آلات التدخين.. الشيء الذي أفصح عنه هو أنه مزارع واسمُهُ "اللين". المشكل الأكبر في انعكاس المألوف. فالطين اليابس أسوأ ألف مرة من الطين المبلول. ماذا يفعلُ مزارع في مثل هذه البلدة القاحلة النائية.. أجاء ليزرعَ أمتارا في حوش لا تروي فضولَ الهواية؟!

لقد رحل صاحبُ الغليون متعدد الرؤوس من قريتنا بعد أن خسر معركتهُ مع "الخفوت".. كان جميعُ مُلاك المنزل الغريب هم ذات الشخص "نير" المتنكر البارع، والكاتب الشاعر.. كان يسعى لتجربة

مختلفة في الكتابة.. "إبداع المغامرة الذاتية"، وهذا شيء نادر في بلدٍ لا يعرفُ مبدعوهُ تاريخ أسلافهم مع طقوسِ الكتابة.

لم يصلني جواب من "نير"، وأذكرُ خاتمة "آخر رسالة"، جاء فيها:

"تحدث أشياءٌ غريبةٌ. النهاياتُ الأكثرُ انفتاحاً تكُونُ دائمًا حادةً وسَائبةً.. وقد تلعبُ المُـخيلةُ بحقلِ الزيتُونِ والعَصَافيرِ، وقد تَـنْـفَـضُّ ولاءاتُ النَّسقِ من حوله وهو يَـقُومُ بتشحيمِ الظَّهـيرةِ الـجَـامِدَةِ؛ فينكفئُ مُلاعنًا السَّلالمَ التي أفضت بـه إلى شُـرفَةِ تمزيقِ الذاكرةِ وقد أصبحتْ مثلَ فاكهةٍ عَطْـشى.. لماذا نقُومُ بـ"سَـمْكَرَةِ" الحنين بَيْنَ المَرَايا!

لماذا نستغفلُ المرايا الثَّـملةُ من ملامِـحنا!

قلها؛ أو لا تُـقُلْها بلِسَان سَبَبٍ!

الأشواكُ لا تَمشي إلا حين تَـنْـغَرِسُ في أقدامنا.

إذا تخصصَ الشاعرُ في "أسْـرِ الانتباه".. خَسرَ ثقة النَّصِّ، وهجرتهُ هوامشهُ التي يَمتَصُّ فيها الإضافاتِ الـمُظلمَةَ، وهكذا تُـصبحُ الأنسَاقُ الـمُبـهمَةُ من حولك كجيرانِ السِّجنِ!".

لا يحقُّ لك "السِّحْرُ الأشعثُ" في المناماتِ والأحلامِ الـمُسَمَّرَةِ على أكثرِ التّصوراتِ زئبقيةً.

نَـمْ صاحيا.

9

يقولُ المثلُ الشعبي إنّ "زوجة الأعمى إذا وضعت "الحنَّاء" فنظرتها لم تعد كما كانت".

وأنا من هذا المثلِ لا أريدُ استنطاقَ غير واقع من "يضعون الحنّاء" للعميان!.. ثمّةَ جيل كامل لا علم لهُ بشيء اسمُهُ التاريخ الاجتماعي لهذا "المنسوب البرزخي" الغَرائِبي العجيب!

أشاهدُ مثقفينَ يُعممونَ رؤوسهم بـ"الرمال"، كما يضع العودُ عمامته من الكبريت. وأسمعُ "مؤرخين" يروون لنا أشياء لم تحدث؛ ويتَغاضون عن الأشياء التي حدثت، وأحيانا يسعونَ إلى طمرها بتعسفٍ، وهي تلكَ الجديرة بأن تشرِّفَ صفحاتِ "الحق التاريخي."

فهل لنا أنْ نطمئنَّ إلى روايةٍ من "حَنَّأَ" ذاكرتهُ فتْقا، فراح يرممها بالثقوبِ.. وهل نحتكمُ إلى "مسلماته" بأحرفها وأسمائها وأفعالها؛ ثمَّ بأدواتِ "علتها".

هنا مجتمع يترسب تاريخهُ عميقا في "الشبحيات"! وأما من أرادَ الخلودَ فيه فعليه أن يعمد إلى "تشبيح" فرضياتهِ وفرائضهِ.

نحن لا نعرف إن كانت الأزهارُ تنام واقفةً، لكنها بكلِّ تأكيد تفوح عطرا إذا قطعت وتزداد جمالًا وهي ممددة في "الكفِّ الحدباء"، وقد تصبحُ أجملَ حتى حين تذوي... وللعشَّابينَ قصصٌ أخرى مع الزهور الذاوية.

التاريخ يبقى عاطرًا حتى ولوْ ذَوَى.. هو لا يجفُّ، إنما قد يقومُ المُغفلون بتجفيفهِ.. ولكن تجفيف السيف قد يبرز لمعانهُ لكنه لا يُخفِّفُ من وقع ضربته.

فلمن تُجففُ الأسيافُ، ولمن تندى حناجرُ الأقلام؟ فليكن أحدُ المؤرخين رحيماً بمجتمعنا.. ليُنقذنا من "أمُومةِ الوهم". فالتاريخ ليسَ "ولد" و"مات" أو "عين" و"كُرِّم" و"أحب وتزوج."

التاريخ هو تلك الأبعاد الإنسانيةُ المُجتمعةُ في حركةِ المجتمعاتِ والأفرادِ.. التاريخ حقيقة تصرفنا في الزمان والمكانِ.. أما غيره فهو "الذَّاكرة الفائضَة."

في حالاتِ "الطبائع المنزاحة" نسيَّ النِّسيان أن يريحَ ذاكرتنا، وأن يقوم بتفريغها ووضعها على "المَحو النِّهائي". وحين ينسى النسيان،

يعاودُ علاتهِ في منحنيات التأشيرِ الصفراءِ، ومنزلقِ الزلاتِ والخطيئاتِ الـمُلوثـَـةِ بعثراتِ الدروبِ.

في حديث النسيانِ لا يتحولُ الحرفُ إلى سُلم نحو الجُملة، ولا تتحولُ الجملة إلى دليل "مادي أو حسي" على طبيعةِ النصِّ الحاضر أو الغائبِ أو ذلك النَّصّ الموءود بين أجداثِ السطورِ.. حيثُ تخالف الدلالةُ الدلالةَ، ويُخبِّبُ الشَّاهدُ مَناماتِ المَقَامِ.

ليسَ "مفصل القولِ" بالمضمارِ اللائقِ بأبهةِ "لن" انطباعًا بـ"المطلقِ" كيْفيًّا كانَ أو كميا..

كيف لمؤرخ، أي مؤرخٍ، أو حتَّى لحكواتي هاوٍ، أي حكواتي، أن يُوثِّقَ خطاهُ أو يثق فيها فوضَويةً أو التزامًا إذا ضُبطَ الصمتُ وهو يتبجحُ في الفراغاتِ الوَضِيعةِ مثلَ ذاتها في السّرابِ.. أوليس "السّرابُ لبان القيظِ . . !"

لا يُغَاثُ التَّاريخُ الاجتماعيُّ إلا بثقافةٍ لا "تُـشَرْعِنُ" المَلاذاتِ القهريةَ وَعْظًا بمعلوماتٍ عن حَماقةِ الفتيلِ.. نعم. ولن يجعلنا "الوقتُ النفعيُّ" قادرين على اكتساب المهارة في ترويضِ الانحراف، بل سنجدُ أنفسنا في مواجهةِ "انحراف الانحرافِ".. حتى يتدخل في صياغاتنا "أهل اللغة" ناصحينَ بتفكيك خامةِ مصطلح "الخطايا المنحرفةِ".. العلةُ أنَّ

MAC
مركز الخدمات الإعلامية والترويج
MEDIA & ADVERTISING CENTER

مـحنة العقل في الهروبِ إذا "استَنــْفَـذَ البَابُ"، ولكنَّ المحنة الأكبر من نصيب العقلِ الذي يَخْذُلُه الجُنونُ!

وللخاصةِ من بعدِ ذلكَ أن تحكمَ بـ"ضمير درجةٍ" إذا أعلنَ سَدَنَةُ اللحنِ أن صوتَ القوسِ عند الإنباض ليسَ بُشرى بفاتحةِ نسيمٍ !

عندما يبدأ الوردُ ترويضَ الشَّوكِ؛ وتطعم النار رمادَها لبنًا سِمَادًا للحقلِ، تَكُونُ غلالُ البيْدَرِ "شبعًا" للشبعِ والريِّ . .

أما ما عدَا ذلك فهو رَمْيَةٌ شاطِبَةٌ.. مغامرةٌ من نو ع إلقاء البذور خارج الحقلِ.. ولجوءٌ استفزازي إلى بينة الطَّمْسِ. والتاريخُ لا ينخلُ الخَيبة!

فلمن يضع "الحَنَّاؤُون" مواسمِ الشَّفَقِ على مرمى جفنين!

ولكن لماذا لا نتركُ الريشة "تُـرْقِي" اللوحةَ بالمزيدِ من الألوانِ؟

فكم مرة تكوَّنُ قطرُ النَّـدى من الضَّبابِ الجَريحِ!

10

الصخبُ الـمُطلقُ! ما أكثر الانحناء في خطِّ الاستواءِ!

من بين أولئك الذينَ ليسَ للماءِ حقٌّ في جُفُونِهم، كانَ وفيا للمكان خلفَ شاشة اللمسِ كلما أغرقَ وجهه في ضبَابِ القهوةِ.

هو كانَ يسعى لكتابةِ الطلسم "الأثير"، ليصبحَ الغديرُ خدينَ التلةِ.. ويُشَفَّعَ الفجرُ في نديمِ الكُحْلِ!

ذاتَ مساءٍ لغُوبٍ "وجدتُ تـفسيرًا عجيبًا لرؤيا النَّمل... القُرى بعْدَ القرى، و"الحمد في الإصباح والسرى"، تبعثُ "قارِئة اليَمِّ" إشَارَات إلى "الحوْضِ النَّاضبِ".. سَبَّابة بسَبَّابة، تميسُ وتنشدُ علَّ "الثُقُوبَ المُعَمَّمَةَ" تسمع أو ترى.. يلاحقُها تاريخُ الشَّطبِ التَّخَاطُريّ.. ما من حَجَرٍ يتسع لقامة "مول داير" التي أجبرت على الهربِ لتستنجدَ بالغابةِ، فتذوبَ شمعتُها في وجهِ "شتيمةِ البرْدِ والجوع".

بينما كانت روحها "تذوي" في فيافي باردةٍ، ونَابَها شبحُها، كان في القريةِ من يُردِّدُ المقولةَ الشهيرةَ لابنِ خلدونَ عنِ "النفوس الـمُكرَّسة بالكامل لأعمالِ الشَّر"..

تخشبَ الصَّخَبُ ليُـثبت "الحرفُ المِسْمَاريُّ"، تطلسمَ الطلسمُ بأبي "دريدٍ"، ونُسيَّ طِفلٌ يحفرُ في "منجم الطَّائرِ الذبيحِ"، قد نيطَ بتميمَةِ الاستبصار، على لغةِ المسلوخِ المُعلقِ في "رواقِ الـحُزنِ" من كتـفِ اللعنة إلى جوفِ الكهفِ.

كلُّ شيء وجعٌ "رتيقٌ"!..

إنَّ سُنبلةَ الهذيانِ غالبًا ما تَـقطفُ رأسَ صاحبِها.. فيا صاحبي "رتِّقْ بابَ القفرِ الأسحمِ"، لتُـؤوِّلَ لهمْ الرؤيا، فالنومُ فقيرٌ دونَ حُلم.. ومن يستيقظ يجد نفسهُ في "عالمٍ آخر" يُـغْويـهِ رمادُ الحَجرِ الزَّيـتيِّ، وبائعُ النعناع الريِّفيّ المـُـلثَّم بالغُبار، وعشَّابُ المدينة القديمُ، وراوية قصَائدِهَا، ومداحُ أحذيتها.. المدينةُ، التي لا تكبُرُ على الوِسَادَةِ كاللغة، لا تبوحُ للغُرباءِ بأرصفتها ولا بأرصدَتِها، إنَّـها تُشبهُ السوقَ، مربطٌ لوجع رديفها الرَّتيب.. حدِّقْ في الظَّلامِ.. فالظلامُ موسمُ حصادِ الـمُنجمينَ.. لكن إيَّاكَ أن تسألني تأويلَ السَاعَاتِ الـمُنكمشةِ على مِعصمٍ مبتورٍ..!

هذا الزمنُ، وهذا الحرفُ الشريد، غير الفريد، يُغيِّرُ النبرةَ التي تفترشُ الوريد، هو الذي نَسِيَ حبرهُ بمحبرتهِ بين القصيدِ والعصيدِ، ثُـمَّ إنهُ خلطَ النافذةَ بالوصيدِ في لازِمَةِ النَّـشيدِ..

نعمْ. على ضَوْءِ النَّار؛ كانَ السَّمرُ أفقًا كاملًا.. فيهِ تعرفتُ على غيلانَ ذي الرمة يتقفى متشابهَ الآثارِ.. سمعتُ عن منازل بني عبس، وعن النوق "المستعبلةِ" السارحةِ على تلِّ الخيامِ.. وعن فرسٍ وسيفٍ وصخرةٍ منـقوش عليها "شيء" ما على شكل "السرِّ".. في ذلك المشهدِ رأيت غُنيماتٍ ترعاهنَّ صبايا "بني الحسحاس"، رأيتُ "أشطانَ البئر" في مرآةِ الصعلوك "شِظاظ الضبي"، مرآتهُ "لقية" ممهورة بملامحِ "بني خثعم" في "الخُطى المُتأخرة"، بالـمُقامِ، ذات النَّهارِ المشكُولِ، الذي أشْرِبْتُ بهِ فجْرَ الـحَلاجِ في بقيةِ نَخْبِهِ.

ألا يضعُنا ابن خلدون على جدارٍ ينـهارُ على "الساحِر"!.. لعله كانَ يعرف.. أن "شعرَ الروايي" لا يجمعُ في ظلِّهِ ما يكفي منَ الشُّموع والعُطُورِ.

كان يدركُ أنَّ "الساحر" لا يتاجِرُ بأظَافِرِهِ ولو خارج قيمة التخمينِ.. وأنَّ الشَّاعر لا يشربُ من قدحِ قصيدتهِ، فالدمعُ لا يسقي خداً يدميهِ.

تحتاج طبائعُ النَّمل والسنابل أكثر من قريةٍ وأكثر من حقل.. لنا مخيطٌ أسفلَ الخيطِ.. عادة وضعيةُ المخيطِ لا تحررُ الخيط حتى ولو كان أعلى!

هذا ما يرددهُ مريدُو "الحانيين".. وهم من عاشوا قرونًا عديدةً "أساتذة الكلامِ".. وسرُّ خبرتِهم في "كشف غرائبي" مذهل. فتعويذاتُ "الفهم" بالنسبة لهم تفقدُ قوتها بالاستنساخ.. لذا قاموا بإلغاء كلِّ توزيعات "الجدول الأثير"، وبحيث اختفت منهُ الكلمات والتقاطعات الخطية السابقة.. وبهذا تتلمذ عليهم شيوخهم.. فإذا كانَ السحر نفسهُ يحتاج إلى تجديد "لغتهِ".. فما بالكَ بغيرهِ.

تنويه! هذا الكلامُ "محظور" في "بلادِ الهَاح"، وليس فيه أي تلميح لأساتذةِ النقد في أيِّ جامعةٍ داخل الحوزة الترابيةِ على أي "حرف استواء".

11

ما من ليلٍ أرهبَ النُّجُومَ؛ أو منعها الإشراقَ من "مطالعها" في لحظة خُرافية آسِرَة؛ بل إنَّ "أعتَمَ" العَتَمَاتِ تفشلُ في طمسِ أيِّ مصباح ولو خَفَتَ، وأيضا ما من مطرٍ ترعبه السقوفُ فيتجاوز إلى "غير المسقوف"، كما أنه ما من بحر مهما كانَ كبيرًا وعميقًا ومُزبدًا قادرٍ على إخلاءِ ذمّته من السُّفنِ.

إن الغُروب هو كُحلُ الشَّمسِ.. فلماذا الخوفُ من الغُروبِ ومن الليلِ!

"بعض الناسِ لا يُحبُّ الليلَ".. وهذا خطأٌ أخلاقيٌّ "فالليلُ أليلُ"، ولكن حَسَنَاتِ اللَّيلِ أكثر من أن تعدَّ أو تحصى، فإن تَقنَّعت بهِ عثراتُ الدُّرُوبِ، فالليلُ صديقُ الشُّعراء والمُتصوفةِ الذين يزهدون في "نظرات الناسِ"، ويؤثرونَ الهدنة مع الضَّوضَاء من أجلِ لحظات روحيةٍ لا يُكدّرُها رياءٌ.. لحظات لا تُرَوعُ فيها السَّتائرُ بالغَافلينَ

على عتبةِ الشكِّ المُلطَّخَةِ، لأنَّ روحَ الغافلِ لا تختلفُ عن رُوحِ سِلْعَةٍ مَشبُوهَةٍ.

وأما المطرُ فهو هبة الإيقاعَاتِ الخَالدة، التي "لا يتـغناها" غير الشُّعراء، ولكي نغرقَ في طَـفْـوِ الرِّئَاتِ الـمَنحُولة في سديمِ البلبلَةِ، فسنـقُولُ، ودُونَ مُغافلةٍ للغةِ،: إنَّ الـمَطرَ لا يستُـرُ البُذُور.

إنَّ أيَّ "زمنٍ وما فيْهِ من بحرٍ" لا يمكنهُ تجاوزُ الشِّعر ولا الرقيُّ إلى مستواه بغيرِه. فالموسيقى والرقص والغناء والنحت والرسم والتصوير... وغيرها، لا تحلُّ محلَّ الشِّعرِ، بل تتـفرعُ عنهُ، وهي تَسْمُو بما تأخُذُهُ من الشِّعرِ.. أما حكاية الأذواقِ مع "عصر الرواية" وسلطانِ السردِ فما لنا ولها، فالشعرُ مِصباح الروحِ والكلماتِ. وما سواهُ يبقى، بالـمُقارنةِ العادلةِ، أقربَ إلى صياغة بياناتِ الإرشادِ في المعاملِ والمزارع والمداجنِ.

يَخشى النَّاسُ على الشِّعرِ! نعمْ حين أسألُ بمستوى هذا "التنكير" حتى لا أقول التفكيرِ، أكُونُ حريصًا على "عيبتي"، ولا أتَورَّطُ مُطلقًا مع ما يتمظهرُ من خلفياتٍ فُقَاعيةٍ، إنَّما أتناسى تحفةَ الاحتفاءِ من أسْقَمَةِ الأفهامِ إلى أسْمَلَةِ الخطى.

الشعر بخيرٍ، بالنسبةِ لمن لا يعتبرهُ هيئة أرصادٍ نفسية، أو تعويذة "لحلبة ساخنة"، أو ساتر حماية ضد "لدغة" الحنظل، أو حكاية أقدامٍ

حافيةٍ وعيون عجبتُ لصفائها واتساعها وهي التي لا ترى ما تسببه من معاناة.

الشّعرُ روح الـخُلدِ.

وإنَّ سلعة الروح لا تبُورُ بذخيرةِ الأنفاسِ.. خُطُوطُ البَصمةِ شجنٌ والبنانُ "وصيّة ظنّ".. الشِّعرُ كائنٌ من أهلِ الجنةِ، برغمِ سوابقِهِ مع الأشجار، الشِّعر ملحمةُ الظَّمَأ في شَغَفِ الفتيلِ، هو دليلُ الضياعِ في السبيلِ، ومن هنا لا يفهمهُ كثيرونَ ولا يتـفهمُونهُ في الظُّلُماتِ المـُـطلقةِ.. ظُلماتِ الجُفونِ برشفةِ الغمضة ورياءِ الحنينِ قبلَ الومْضَةِ.

الشِّعر لا يصلحُ سَمْكَرِيًا في "ورشِ صِيَانَةِ الأقنعة"؛ الشِّعر محاربٌ عنيد في وجهِ شبح الفناءِ، بقدر ما هو مقاتلٌ خُرَافِيٌّ حتى لإنقاذِ الأشباحِ من الفناءِ.. إنهُ لا يَتَحيّـزُ عن فطريتِه، فعلاقته مع الرُّوح لا معَ "الشَّطرِ الطِّينيِّ" من "البقيَّةِ"، التي تركها فينا تلميذُ الغُرَابِ.

حتى "ذلك السؤال" ما زالَ يُطرحُ اليوم "في العالم المتقدمِ"! ولكن من طرحه من "خلف البحر" ارتكب جُنحة سُؤالٍ باسمِ الواقعِ السَّرابيِّ لما أصبح بالإمكانِ أن نُطلقُ عليه عبارة "جناية فُنُون التسطيحِ".. إن الكتبة "أذكياء عندما يتعلقُ الأمر بمحصُولِ الحَانةِ".. بينما ما نَزَالُ "نحنُ الرَّيفيينَ" في غُرْبتنا متدثرينَ باغترابنا جرَّاء ما

اكتسبْناهُ من غنيْمَةِ الذُّهُولِ. نعم! يقينًا كُنَّا نتجَاهلُ مُتظاهرينَ بقناعِ السَّذاجةِ.. وبينما اغتربَ الفُضُولُ في مَلاذاتِنَا الرَّمليةِ، أشهرنا حربةَ الهباءِ، لترفرفَ على ظهْرِنا مَلاءاتُ الآخرِ كما هو حالُ رفْرَفتها عندما تكُونُ على ظهْرِ حَبْلِ الغَسيلِ، فأيُّ شيءٍ نفعلُهُ إزاءَ دَمَامةِ النِّزالِ على بسيطةٍ، من دون الشِّعْرِ، قد لا تتحملُ سيماء تجديف مؤجّلةٍ؟

الشعرُ صوتُنَا في فَلَكِ الصَّوْتَنَةِ.

12

بنغمهِ الشجيِّ العميق، يتردّدُ صوتُهُ غيرِ آبهٍ بشُبْهَةِ الفرحِ، يخطو قبل أن ينحني كمن يلتقط "اللاشيء"، ثمَّ يستعيد "عمُوديته"، ويبدأ برسمِ أشياءَ في الهواءِ الطلقِ، "هواء بنصف سراب"، هو يتجرّأ على أن يُبددَ كل الكلام في قليلٍ من الصّمتِ، ساعةَ لا يريدُ أن يحشر الخَرَسَ في زاوية ما من وريدٍ منبوذ.

أتذكرهُ في "عامِ الشتوةِ المُظلمة"، حيث قيلَ طيلة ذلك الفصلِ إنَّ الشَّمسَ لا تظهر إلا حين ينامُ الأطفالُ "نـيِّئو الذاكرة"، كان شابا قويا ومُبارزًا جريئًا، تجاوز في أسطوريته "دمَّاه"، المحارب الخُرافيّ الذي لم يعد يذكرهُ أحدٌ بعدما نالَ منهُ الزمنُ حتى غدت تُخُومُ ملامِحهِ مثل المِدفأةِ الهَرمةِ كثيرة الرمادِ قليلة الإضَاءة.

لا يغدو الحنينُ في انطفاءات الحُلمِ، المسخ مرَّ في هيئةِ ظلال رجلٍ، ولكنَّهُ بقيَّ في منفَضَّة الأسرارِ، وجعُهُ الأكبرُ أنْ يسترجعهُ أولئكَ الذينَ علمهم "حرفةَ النِّسيانِ"، عبرَ ذاكرةٍ مختُومةٍ بأكثر من بَابٍ وأكثر من نافذةِ.

كانت الرُّؤيا مُعينهُ الوحيد على عُبُورِ الانسدادات الـمُتَتَالية في زاوية نظر ليس بينها وبينَ الآخرِ مَمَرٌّ قابلٌ للتّوهمِ على غرارِ "دار عنترة".

المراهقُ الذي عَرفناهُ يكتب في الهواء، كانَ شخصًا سريعَ التمظهرِ بأي "صفة" يريدها لنفسه أو للناسِ، إنهُ يرسمُ ببالونيته الفذةِ دون علوٍّ في الأرضِ!

جاءنا من ريفٍ، تسبقُـهُ أخبارُهُ، تحدانا في أول يوم، فخيَّرَنا بينَ حفظِ القصيدةِ من قراءة واحدة وبينَ ارتجالها كما لو كانت تقرأ، لشعورنا بالعجز دفعناه إلى طلبِ المصارعة، فنزل على شرط أن يصارع مقيد الرجل اليمنى! لا أذكر أن أحدًا منا نجا من كدمة أحرى فاز.

لقد توعدني مرات إن لم أحسن الغناء.. ففكرتُ أن أكيدَ له؛ وكانت الآبارُ عميقةً، لكنَّ نداء ما أجبرني على تـمتمةِ فلِّينيةٍ... "حتى الذِّئاب لا تأكلُ الـصالحينَ!".

غافلني ذات ظهيرةٍ وحيدًا عندَ البئرِ، أسقي قربي وحماري ومعزاة "أم الفالي"، لم يلق التحيةَ عليَّ، بل بادر فرفعني ووضعني على كتفه بكلِّ ثقةٍ واقتدار.. اقترب من فوهة البئرِ مستفسرا "أين تريد السقوط؟"، قلتُ له "دعني أغنِّ لك؟"، قالَ "لا، فصوتكَ حجارة في علبة نحاس"، قلتُ له "حسنا. على مرمى بصري.. كل مكان تسقطني به سأتعرض لعدة كسور على الأقل". ضحك وقال: "فسِّرْ لي رؤيايَ وسأعلمك الغناء وقرض الشعرِ". قلت "ضعني أرضا لعليَّ أكونُ أقربَ للرؤيا، ثم قلتُ حينَ لثمتْ قدماي الحصى: "هات!"، فردَّ:

"لقد رأيتُ النَّاسَ يمشونَ على رؤوسهم، وكان الشعراء يخبزونَ؟". قلتُ لهُ "إنَّ الذي رأيت بمنامك لم يكنْ بشرا سويا، بل كانَ نعاما، وإنك لو علمتَ، فالأفضل للنعام أن يدفنَ رأسه".

قال "أيُّ ملمح في الحياة عظيم لولا بدعة التأويل".. أكنتُ لأفقه؟.. في "مَسْرى التأويل الفنيِّ" غيرِ المنحولِ.. بين الفنِّ واللافن يوجدُ خيط رقيقٌ جدًّا كالقراملِ التي تشدّ ضفائرَ البناتِ.. وقطعا "لا بأس بالقرامل".

لا يتكورُ الملحُ بعد فضلته إلا تَمَثُّلاً، فقد عجزت منحوتات السباخِ أن تعطي طعْماً فنيا قابلا للسكوتِ على مستوى "نَبْرَتين".. بدلًا من ذلك استنبتَ الخشب الجافُّ من بين أناملِ الفَنَّان أروع الحقولِ المتشابهةِ على صبيِّ الطَّلحِ والقتادِ.. ذلك أنَّ الإنسانَ الفطريَّ قبل آلاف السنينِ أبكى الدنيا بغصنٍ يابسٍ، حينَ ثقبهُ ونفخ فيه مستحضرًا من رئتيهِ نسيمَ الحياةِ.. ولم يخطئ مطلقا عندما هتك ضلع العودِ ونشر بهِ نوافذ صغيرة مستديرةً لكل منها نصيبٌ من السحرِ الذي يسمونهُ عزفا أو لحنا أو ضربا بالشفاهِ المسترجعة أنفاسها عبر آذانها.

لم يفعل فنانُ الفطَرةِ سوى أنه سابق الأرضةَ إلى العودِ ليثقبهُ بما يُحييهِ ويطرب الناس.

13

يُحكى أنَّ "حمدي"؛ الرجل الذي عرفَ بلقب "تاجر الريح"، حلَّ ضيفًا على حيٍّ من تلك الأحياء الموريتانيةِ التي كانت تنتقل طلبا للانتجاع بين المراعي في السنغال.. كانت خيامُ حيٍّ "البيُّوط"، على ربوة "العارظ"، قد نصبتْ بشكلٍ متتابع كالقافلة، ما يعني الاستقرارَ لفترة عن الترحالِ بعد الرحلةِ من "دار الكدية" (كدية "كيص")، والتي تتنازع هوى الأحياء الريفية مع "دار آكوم" و"دار التيدوم" بذات المنطقة.

وصل "حمدي" ذاتَ المساء المليء بالشَّفقِ؛ شفق كاللهب في منتصفِ الإطفاء، شفقٌ بكل مكانٍ وليس فقط في الناحية الغربية من السماء كما عهدَ.. نامت كلابُ الحي ما إن أعلنَ وصول "حمدي"، وهذه ميزة ترافقه في حله وترحاله، وكما أشيع أنه يحدث، انهمر المطر طيلة ساعة وتوقف فجأةً، لتنطلق ألسنة النيرانِ ببخورِ المحلبِ،

و"غرفاتٍ" من الجمرِ يُرافِقُها صريرُ مواعين الشاي مع رائحة النعناع المجفّفِ.

"حمدي"، وبما أجْزَرَ مجدافُ الهمس: إما أنهُ صالحٌ كبيرٌ أو بَهلوانٌ شريرٌ تتخيَّرهُ جسورُ الاستدراج!

انتهت جلساتُ الشاي وشبع الناس وارتووا، أخذ أفقُ الليل بديعَ حُلَّتِهِ على وقعِ الرجيعِ، وتساقطِ قطراتِ الماءِ من أوراقِ الشجر.

لا صوت للحمير والكلاب، حتى الكلبة "زيم" كأنَّما لم توجد يومًا، وهي ذات التاريخ الـمخلَبيِّ المثير.. صارت هذه المخلوقة جزءًا لا يتجزأ من حيِّ "البيُّوط"، فما إن يضلَّ شخص أو دابة حتى تقودهم إليه، ومنذ عقود لم يخسروا شاة واحدة للذّئاب. كما أنّ لها قدرة خارقة على اكتشافِ الغُدرانِ وقيادةِ القطيعِ و"الوُراد" إلى الماء العذب، ومن أغربِ ما يروى عنها أنَّها تستخدمُ درجاتِ صَوتِها من دمدمة ونباح وعواء وأنين لتخفيف آلام الطلق عند نساءِ البشرِ.

نام الأطفالُ معَ سذاجتهم، وأخذَ حديث الكبارِ منحى البيعِ والشراءِ، يقال هنا في هذا الحيِّ إنَّ البدو الرُّحل هم أفضل الناس في مهنة "التسويق الليليِّ" من بيع كهانة النجوم إلى تحرير "الطلاسم المدهونة بالظلام"، إلى إجراء الصفقات الكبيرةِ في القطعانِ، وتسوية

مشاكل النهار، وإصلاح الخاطرِ المكسورِ والأخذ والرد في شأنِ النساء والـمُهورِ.

إنَّ "حمدي" غير معني بكثير من شؤون الحيِّ. بعيد منتصف الليل وصل مزارعون محليون يريدون شراء سلامة مزارعهم من الطيور. لدى "حمدي"، الوصفة التي لا تخطئ، استلم "ملح اليد" واعدًا بهبوبِ ريح تحملُ موجاتٍ صوتية لا تطيقُها الطيورُ.

سأل عن "مداحِ الحي"، فأخبروهُ عن الطبلِ المثقوبِ.. فدندنَ بأبياتٍ من الميمية، وشرح، دون أن يُسألَ، أبياتًا من رائية سالم بن وَابِصة الأسديّ الخزيميِّ، قبل أن يضبط موجتهُ على خصائصِ الأعشاب الطبيةِ، مُثنيا على فاعلية عُشبة "التيفشكيت" في رفع المناعةِ، خاصة عندما تخلطُ بـ"ماء الخشب"، ويقصد بهِ ما حبسَ من ماء المطرِ بين الأخشاب وقشورها.

يقولُ إنهُ لا يمارسُ الشّعوذةَ، وإنما يستفيد من قدراتهِ الخاصةِ.. يسميها "هبة مُتوارثة" في شجرته العائلية المزعومة، التي يحفظ منها أسماء ستة عشر جدا موزعين من أدغالِ السنغالِ حتى اليمن فالحجازِ مروراً بالمغربين ونـهر النيلِ، يؤكدُ أن اختصاص سلالته هو "إبداع العِطرِ"، قبل أن يحولهُ "الأجدع البرَّاني" إلى "سلعة" تباعُ بالجملةِ لتهويمِ الأنوفِ المستغفلةِ.

لا يغفر "حمدي" لذلك الشتاءِ "غير الـمُحَرَّقِ" في ذاكرته.. عندما كانَت قافلة "آمليل" تعود من دون "وصيته"، فقررَ في السَّادسة من عُمرهِ؛ ومصالحةً مع واقع قحٍّ؛ أن يستغلَّ أيّ شيءٍ بوحيِ خاطِرهِ في كل مكان وكلِّ زمان.. أما في هذه الرحلةِ فبإمكانهِ أن يَمْسَحَ الريحَ عن الأثَرِ، ويحمي بها الحقُولَ.. إنه يتاجر بها في نايهِ وطلسَمه.. ولَمَ لا! أليستِ الريحُ رحم اللحنِ وترياق الزمَنِ؟ ما من سُؤال أبتَر!

14

ما تودُّ بقيةٌ من "آل ثُمالة" أن تُسَربلَ أعناقَ الزجاجِ بقَامَاتِها؛ تقضي مرويات "زيرة الملاح" أنها إن فعلت شيئا من ذلك "القبيل المدبر"، أو قاربته بنصف خطوة على إيقاع ماكرٍ، فإنها تكون قد برقشتْ مَصيرها، وحتميةُ التأويلِ أن تفقدَ أظافرَها في منشطِ الأفقِ الأكمهِ.. فتلك المرويات تفضي للصَّحوِ بأن يطفق مَسْحاً بأعناقِ الخيولِ الخشبيةِ في مَدَائنِ "الحرف الطروادي"، مدائن لا شوارعَ من تحتها ولا شرفاتٍ من فوقها.. إنها مغلقةٌ بأسماء حراسها النائمينَ خارج الغمدِ.

بقية نخبٍ؛ وتَضمَحلُّ الفَراغاتُ المجتزأةُ في أصائلِ الدمدمةِ؛ ليصيحَ في رواقكَ مِخْيَطُ الجرحِ بأسماءِ سلالاتِ البلسمِ، ثمَّ يمنعك أن تتبلسَمَ.. وأن تنذر بإجلاءِ "سامعة" لا تبجلُ إلا الغائضَ من ماء والمهيضَ من جناح!

كلُّ "توزيعةٍ" للنهارِ هي روحكَ ولو احتكرَ الهواءَ ألف قمقم!.. لا تختم بخفيكَ رؤيا دربكِ النرديِّ في "جمرياته" لأنكَ آخرُ الطلقاءِ المسرفينَ في الساعات المـُـجففةِ والخاليةِ من "الدهنِ الأشعث".

هنالك في "السردِ الدَّادائي" يحشرنا الرسم بالغيابِ؛ فلا نعود لذاكرة اللونِ البنفسجيِّ؛ لأننا منذ ألف عام وتزيد عالقونَ بسهلين ومـمر جبليّ، محاصرونَ بساق السنبلة، لا ندري أيحبسنا أم نحن فرضنا عليهِ ذلك "الوضعَ "الوتديَّ" في الوحلِ الهيثمِ.. نعم. محاصرونَ بلون الرملِ وهو لونٌ نؤومٌ وكسُول، ولكنهُ يتحركُ بأقلِّ اتجاهَاتٍ ممكنَة بين الغديرِ وتكملته السَّرابيةِ التي قد تصل رؤوس التلالِ حتى وهي تحملُ أصوات الضفادعِ و"طيور الحرّ" التي تشكل شروخا في مرايا السرابِ، ومن فوق هذا المشهدِ المخلبي والخلابِ، الذي يبدأ بتسخينِ خيالِ الرأسِ اليانعِ، يحقُّ للرُّبان رفعَ الساريةِ تمهيدًا للابتعاد عن حصيلةٍ مُتكلسةٍ من القِراءَاتِ الودعيةِ التي تتواطأ علنًا باسمِ الخنصرِ والبنصرِ.

ما نصحتُ أحدًا بتجربةِ حَرفٍ في صوتنةٍ موتورةٍ، لا في "الظلال السائلة" بين شرايين "الشعر الصخريّ" ولا في الأوردةِ الذاريةِ بالأوديةِ، والحكمة من ذلك أنَّ وِردَ اللغةِ أكبر من "بقعة صوتية" وأعزُّ ندائيةً بحكمِ ما نقرأ عن خفقةِ وديانِ الشَّرفِ منذُ هجرةِ المخيال بين "تغريبتين" من عُدوة النجوى إلى حدوةِ الحَلوى.

تحشُرنا "زيرة الملاح" في أبعادٍ غيرَ انتهازية، فلا نمتحُ حاسةَ الإفشاءِ على "الريق البافلوفي" حيثُ يأتي الرنينُ بدليلٍ يشبهُ دمغةَ "النقطة" في السطرِ.

لقد تبينَّ للشعراء والفلاسفةِ المغامرينَ بشرفِ الحلمِ أنَّ النهايات ما هيَّ إلا حقل فجوات! حقل ضخم أو ثقب أسود قابل لابتلاع كل المسلماتِ مع قوالبها في محشر واحدٍ للنّسيانِ.

في السبعينات.. قيل إن رجلًا كان عاديًا جدا، وزاهداً ومتواضعا جدا، صعد "زيرة الملاح"، وعندما تأملَ الأشياء من حولهِ والفراغاتِ بين تلك الأشياء، خطر له أن يقول شعرا حسانيا "مُتحرّرا من المَعنى".. سميَّ ذلك الشعر بـ"اغْنَ التَّزْمَاكْ"، ولكن فيما بعد حين أصبح له روادٌ ومستهلكونَ "على قدر ذمةِ ذلك النوع من السموِّ في الوجهِ الآخر للمعنى"، سرعان ما تراجع إلى "باطنِ الجرفِ".

بالطبع؛ "السريالي الأول" في هذا "البرزخ" كانَ أقدم من ذلك بكثير.. حتى إنهُ تقنع بالأحاجي والألغاز، التي قدمت بطريقةِ "الهايكو" ولو على شكلِ حكاية صحروايةٍ وجملٍ بسعةِ مفازة.

وكما تبقى الجغرافيا أذكى من الحِصارِ، والتاريخُ أكثر طلاقةً من تجاعيد الرقوقِ، ما كانَ أحدٌ مُهيأ لأن يستخلصَ الماءَ من السّرابِ، كما تستخلص اللحونُ من فراغاتِ الناي!.. فسرعان ما استعاد

"العقلُ الجلمودُ" دورَ القوة الساحقة المتربصة بالشقوقِ وفتحاتِ التهويةِ..

ودَّ متأبطُ "زيرة الملاح" لو أنَّ بوسعهِ تحاشي الاعترافِ بنذر الفراغِ بينه وبين العيونِ ذَاتِ التوسعَاتِ التأويلية؛ ودَّ أن يمنحَ نايهُ إلى الشفاهِ التي ترتشفُ من الجمرِ سمرتَه ورمَادَهُ.

15

أينعت رحابُه بالسِّهامِ.. فعمدَ إلى ترتيبِ أحلامِه في وكرِه، وترطيبِ جلده بلسعاتِ الحصى.. ذلَّلَ صوتاً في وعَاءِ الأدلةِ وفي بُحَّةِ الشُّهُودِ.. كانَ في كل مواسمِ العللِ يخبرُ "ديبه" بالنصفِ المالحِ من فراغِه، النصفِ غير المغمورِ بأوردةِ الحنظلِ.. كان يعرفُ ما لسنامِ الإبلِ من أفضالٍ، ويفكر بما في عشياتِ الكلامِ من ألطاف حتى في فحوى الاستعاراتِ البكرِ.. فـ"ديبه" لا يعترف بالعبارةِ الثيبِ، التي لم يعد لها من شأنها أمر، ولو ناورت بتأجيل إحالتها إلى مثواها المتْحَـفِّي.

حين يستبطئ ظهور القمر، يوقد النار وعلى ضوئها يحكي لأترابه على "لسانِ الدبران".. قال لهم ذات ليلة: "عندما تكونُ السَّماءُ ثملةً من المزنِ تفيضُ الأفهامُ ويتراجع منسوب الكوابيس ليسَ في المنام فحسب، وإنما في مقطوعات شعريةٍ لا يجرؤ الخيالُ على وطئها، ولو على حافرٍ واترٍ تشابهَتْ رنَّاتُه ذاتَ كرّة، كما يُروى عن موقعة "الرديفِ"، ولكم ثلاثة: "راحلة العذر" إذا سقط، وركابُ الدخانِ إذا هبط، ورقابُ القحطِ في اللغط والشَّططِ.. فلا تستفرغوا

أظافركم في هذه الديار فهي لـ"آل النمط" وهم قوم من الجنِّ يخدمونَ من "تَسَرْوَلَ" من الإنسِ بجلودِ الذئابِ. . . ".

نابَزَتْهُ جدلية الحقل والطير!

صحيح ما من فلاح يُطربهُ هَديلُ الحَمامِ مهمَا بلغت طربيتُهُ، وليسَ منَ المـُستغربِ أن تخلو أغاني الفلاحين من مدح الطيورِ مهما كانَ جمالُ أشكالها وحلاوة لحومها.

لكنهُ ظلَّ يغنِّي للحمامِ فقد "يُعَصْفِرُ" بعضَ الشُّقوقِ التي تُسَمَّى مَجازًا بالشِّفَاهِ.

حامل الجلد المَدْبُوغِ بالسِّهامِ يكادُ يتحولُ غمدًا.. له في خِباءِ القَصيدةِ نخبٌ عَامرٌ بالرُّتُوقِ ولن يعبأَ بالمقلدينَ الذين يتغنونَ بصبيبَ لا يَسقي إلا ثمرةَ الفَناءِ.

أحيانا يكونُ لزامًا أن تقولَ للناسِ بعضَ الذي يفعلونَ.. وقد لا يقتنعونَ بغيرِ ما يقولون.

قل لهم "تعالوا نجرح الحقيقة جبرًا لأرواحنا"، جرح الحقيقةِ بلسم المطعون.. مدمنو كأس الخلد يمدحون شظاياهُ أكثر من نخبه.. ويفعلونَ ذلك في القيمة والغنيمة، لا في التميمة والنميمة، وباسم سدنة الظلِّ في الطعنة والظّعنة.. ثمَّ إنّهم لا يدلفونَ ما بين الفجواتِ ولا يتمسحونَ بخصالِ الوجعِ ومقالعِ الإحباطِ وقيمِ المشاعلِ الـمُنطفئة، إنَّ بيرق السرابَ لا يضلُّ ساعتهم بعقاربِ الخفوت، لأنهم برغمِ ما "يسبرون" قومٌ يغريهم بيدر البُعد المفقود، وتتلبسُهم

سيماءُ الانكشافِ وليسَ تعلو من حولهم أشطانُ التعوِيْذَةِ وشلالُ الترياقِ.

قال لأترابهِ "لا يحق "لأهل البادية" الحديثُ عنِ "المكانِ العادي".. كانوا يستمعون إليهِ وعيونهم معلقةٌ بجفنة فستق في يده اليمنى، وفي يدهِ اليسرى "الملفوف" الذي تحداهم بمغامرةِ اختياره.. من شأنِ المَـِعدة أن تُـؤْثِرَ الواقِع.. المعدةُ أمُّ الواقعيةِ.. تسابقوا لرفض المغامرةِ. يريدون الفستقَ فحسب.. إلا "ديبه" ذلكَ المجبولُ بالخروجِ على النمطِ، المأسورُ أبدًا باستكشاف المجهولِ، الشديدُ الرفض للنباتِ الكربونيةِ.. "ديبه" صرخَ قائلا من تحت لثامهِ المصبوغِ بمستخلصِ من ورق التماتِ: "أريدُ الملفوف"!

سأله "أتذكر كيف عاقبتُ "ميني؟"، قال "نعم".. عُوقب ذلكَ المراهقُ، بعد أن خسر الرهان في سباق الحميرِ، بتجربة غريبة وهي زراعة ربوة كاملة بالنعناعِ.. وكانت أكبر ربوة في "تلال المقام"، فزرعت بالنعناعِ حتى تحجَّب رملها بالأخضرِ المشبعِ، وبرائحتهِ ثملَ أفقها، قبل أن يتسرى بها حريقٌ أنجلها هشيماً.

تسلم "الملفوف" وولى ظهرهُ دونِ نقض لفافته، سارَ بخطوِ رَنـيمٍ حتى توارى مع الشَّفَقِ.. ومن هناك؛ من جوف الظلامِ أوقدَ نارًا كأنَّ ألسنتَها ثنايا سمراواتِ، ثمَّ خرج إلى النَّاسِ وهم ينخلونَ من ملتهِ وبما تَـيّسرَ من حيرةِ في غفلتهِ وعلتهِ.

16

لا زرع ينبتُ من سحابة صيفٍ.. وإن حدث فلن يطولَ بشكلٍ كافٍ..

بحسب حكايات الغيمِ، التي لم يتم "ْضبط" خيولها ولا "رسنُ" نصوصها بعد، فإنَّ الحصان قد يكونُ أخطرَ دوراً كلما كانت مادتُهُ أدنى قيمة، فحصان طروادة الخشبيُّ كان قد حقق المعجزاتِ كأشهر خيول التاريخ، لكنَّ "خيول الماء" لا يبدو أنَّ لها من يصلونَ فروسيتها بمجاديفهم .

وفي "الأصل"؛ لكلِّ أُحْدُوَّة فرعٍ من تصورها.

لأجلِ ذلكَ يختزنُ "المزنُ" كمية رناتٍ كثيفَة، ويحفظُ "المتنُ" لكلِّ "ممشى" عطرَ قميصٍ بعد القافلة وأثَرَ سكينٍ بعدَ النَّافِلةِ . .

نعيد على مسامع الصممِ أنَّ الحكايةَ الناجحةَ لا تشترطُ حضورَ أبطالِها، لأنها تغدو أجملَ حين تغيبهم جغرافيةُ النَّصِ، كأولئك

الشخوص في حكاية "ديبه"، وفي رسماته على جذوع الأشجارِ، شخوصٌ يحترفونَ إيقاعِ الصمتِ، وتبديد لغةَ الشتاتِ، حتى في رسمٍ يهجو "تاجر الرماد"، الذي يبيع الناس لغةَ النثرِ الخَافتِ ليصبحَ نَحْبَ أنوفٍ أو مغاراتٍ تُسَوِّرها التجاعيدُ.. وإنَّ أبشعَ التجاعيدِ ما يلحق بالكلامِ، وما نتجَ عن ديمومةِ الجوعِ والشَّعثِ والقيظِ والقحطِ، وفقدان القدرة على الحلمِ؛ وبالطبع كل ذلك في خلطة شيطانيةٍ من الزَّمنِ "العَقَاربي" المختصّ في لسع كل نبض محتمل للحياة مهما اختبأ في وريدٍ على ملجأٍ توكَّأ، أو استنارَ ببصيص بالفلاةِ تَضَوَّأ.

في مُنطفأ الرتقِ؛ لا يسمح لنا وعْيُ الفراغِ باللغة في التفكيرِ بالمستحيلاتِ كالسعادة، مهما حَشَتْ غريزة الغفواتِ في أجفانِنا أضغاثَ أحلامٍ نادرًا ما تعمرُ في منامِنا بسببِ سُرعتها في العودةِ إلى كينونتها الكابوسيةِ، حيث تبدأُ بتحميلِ عيوننا شحنةً أخرى من الحرقةِ والرمدِ وعشوِّ الحصى إذ يَعشو.

لماذا لا نخرجُ على وثنِ اللغةِ، فنتمرد على طقوسِ قاموسِ البيئة، التي ظلت لعدة قرونٍ تترصدنا بنيَّاتها الصفراء وأظافرها الحمراء وأنيابها المكفهرةِ لطمسِ أسمائنا وألقابنا وصفاتِنا.. ثم بعد "الفتح اللغوي" نحتكم، في أيِّ وادٍ، وتحت أي ظلٍّ، لمن لا وادي ولا ظلَّ له، ليمتصَّ حظنا من مساماتِ الودعِ..

ما لم تحدث تلك المغامرة ستستمر نبرتنا في التعثرِ.. فيا ترى أيُّنا الواثقُ من خطاهُ المتساقطة فوق الدرب كما يتدحرج الحنظلُ من منابتهِ!

يخيَّـلُ لصاحبي أنَّ الأظافر والحوافر تكتبُ المجد، وأنَّ مهر السعادةِ "يتطلسمُ" في القصيدةِ.. أذكرهُ بأنَّ قلب الصحراء قد يكونُ صغيرا جدا، وأنَّ سعتها قد تسبب ضيق التنفسِ، وأنه لا كهفَ نفتحهُ باستهلالِ.. فكيف يدركُ "مُثَنَّى الغيابِ" أنْ ليس لهُ إلا رغيف شجرةِ الظهيرةِ التي تُجبرُهُ على قضم تفاحة الفراغ.

إن دَلَّاكَ الغائبونَ على أطلالِ النصِّ المُحنطِ؟ فاصبرْ على "حِذاء حنين" لتنظر في "التامورة" ما تبقى من ريشِ ساقط؛ ولأيِّ طائرٍ يعودُ إنْ لم يَسقط بين شطيرتي رغيف على حدِّ تعبير شاعر قديم، فتح رغيفهُ في انتظار أن تُمطرَ الصواعقُ من السماءِ حاملة طيوراً مشويةً.

في تلكَ الحالةِ يُصبحُ الرسمُ رضيعَ اللغَةِ..

ويُتَـغيرُ الفنّ بتَغيّرِ المُعَايِشِ أكثر مما هو بتبدُّلِ الأوتار والأناملِ !

نعم؛ وأستدرك بعدم التعميمِ في كل الأحوالِ، خاصةً مع السؤال الذي أصبح يُوجه لي بشكل دائم عن "جُمودِ السَّردِ الموريتاني".

فيا لقومي ودمُ البعيرِ بعد "القَسَمَ بظهرِ القشة"!. كانَ حُداؤهمْ ذروةَ الإبداعِ.. وتذكرون أنَّ ما أنشدتهُ "الزرقاء" للصمة القشيري غنتهُ بذاتِ الأبعادِ "فيروز" ولم يتورط الملحنُ مع الفاصلةِ الزمنيةِ بين الـمُغنيتينِ.

إنَّ النثر الموريتاني ما يزالُ (بقصوره الفَنِّي والحكواتي) متوقفا عند "محنة التحطب الجنينِي"، وأغلب فرسانهِ "المُبللة رؤوسهم" لا يقومون بغير "استحطاب العباراتِ" تجفيفًا وتشويكًا، بحيث ينتجون تلك اللغة اليابسة القاحلة المكتوب عليها البوار حتى لا ترجوَّ قارئا.

17

من أينَ يأتي ذلكَ الرجلُ بالترهاتِ الفارهة؟ إنهُ مختصٌّ بزعم الأشياء الغريبة! كمعرفته السببَ الذي جعلَ أشجارَ الطلحِ لا تخضرُّ برغم مواسمِ الخصبِ التي ربطت فيها الغدرانُ بين رؤوس الربى، وشوهدَ فيها الورد لأولِ مرة في المنطقة. قبل ذلك لم يتعرف السكان بالوَرْد إلا ذكرا في قصيد، أو استشفاء في وصفة تخالط وريداً.. يقال إنَّ "السايح" جاء من أخصاص واد نون بنباتات مجففة تستخدمُ للاستشفاء.. ويزعمُ أيضا أنه قدم من وادي النيجر، وفي رواية أخرى أنهُ رحالة منَ بلاد النيل، وفي الرواية الغرائبية أنهُ "ساحر أحمر" أتى على متن "سفينة رومية" رست بالشاطئ الآركيني حتى تم إصلاحها، وحين أبحرت قفز هاربًا بين طياتِ الموج، ليسمع أول ذكر للرجل صاحب اليد ذات السبع أصابع بعد سنوات، عندما أثار الاهتمام بجلب "الأعشاب اليابسة" في خط رحلة يمتدُّ من "آوكار الأبكم" حتى "الوادي المهذار"، وهي تسمية أطلقها "مقلد" على دياره خلال مشاركته في عروض "فرق اللهو"، التي كانت تجوب الأحياء البدوية عارضةً خدماتها مقابل التكفل بعشائِها ميدومًا.

كان ممثلو تلك الفرق يحدثون هرجا ومرجا ويتنافسون على العرض في الأحياء الغنيةِ.. ويقال إنّ لـ"فرق اللهوِ" دورا خفيًّا في تزويد الأمراء وشيوخ القبائل وكبار الملاك بالأخبارِ.

لقد كان أولئك الممثلون البِدائيونَ أحيانا يستعينون بالدواب وبمسرح الظلالِ من خلال ضوء النار.. ويستخدمون عناصر "تفاعلية" مدهشة... فمثلا يقومونَ بإلقاء البخور في النار ليشمَّ رائحته المتفرجون بالتزامن مع مشهد إطلالة شهرزاد على ورشةِ تأطيرِ المرايا.

ولقد أدركتُ أحد هؤلاء الممثلينَ، وكان صاحبَ اختصاص غريبٍ جدا، فهو محترف في رسم الأشكال بالدخان من خلال النفخ من غليونهِ.. كان يُجسِّدُ ملامحَ الأشخاص بدقةٍ عجيبةٍ، وأذكر حادثة رسمه بالدخان للعجوز "نينه"، التي ما إن شاهدت صورتها الدخانية تلك حتى حثت الرمل عليها "لتطفئ شبيهتها من الجنّ"، وهددت بالويل والثبور، ولم تهدأ إلا بعد قرار "الجماعة" طرد "أدويدي" وحظر دخوله "حي اليايات الثلاث".. مع أنهم، في السر، وفروا له ضيافة لائقة في خيمة "متُّو" في الطرف الجنوبي الغربي من المخيم.. وقد أبكرت "نينه" وصلت قرب المسجد لتبلغَ "الجماعة" بأنها لم تنم البارحةَ من شدة شعورها بالذنب بعد أن تسببت بطرد "مراهق مسكين.. لا شك أنهُ بات على أشلاء زجاجةِ روحِهِ، جراء مُعانَاتهِ من البرد والجوع في ليلة قارِسَةِ، والسهر في الخلاءِ بسبب الرعبِ من عواء الذئاب".. ما كان أطيبَ الناسَ!

الكهلة "نينه" هي من عثرت على "السايح" وأنقذتهُ من الموتِ مسمومًا. بداية الحادثة، وفق الرواة، حينَ توجهت إلى "السبخة العميقة" لجلب "آخدنْدُور"، وفي الطريقِ اشتمت رائحة عطرية لم تعهدها، فتتبعت مصدرها، لتجد شخصا مُكوَّما تحت شجرة فاقدا الوعي بعد تعرضه للدغة حيةٍ سامة، فقامت بإسعافه فورا برقيتها المجربةِ، وحملت له مخلاته المليئة بـ"الأعشاب العطريةِ اليابسة"، وكانت تلك المرة الأولى التي يضيف فيها "السايح" حي "اليايات الثلاث" إلى أبجدية تحركُه الاستشفائي التجاري.

قال "السايح" ذات ليلة لأعضاء فرقة اللهوِ "عليكم بالصورة الصوتية فهي عينُ الإبلاغ".. ثم اندمج في مشهد عن "**أعرابي جبل نضاد**"، وعلا صوتهُ قائلا.. "تحت سقف السموم، ونكدِ المفازاتِ المُوحشَة، هذه نهاراتُها بقيعة سراب يتربصُ الغولُ فيها ببقيةِ عقلنا، وهذه لياليها المظلمة السَّاخنة فيها يربو الشوك بأقدامنا وتتدثر جلودنا بِذَوَاتِ اللسعِ.. ثمَّ لا نكفُّ عن إنشاد الشعرِ ومدح الخيلِ والنساءِ". كانَ مشهدًا من "المسرح الريفي".. لقد افتقدتُ المسرح منذ هاجَرْتُ إلى المدينةِ.

18

الألعاب مكر، واللاعب الماكر هو اللاعب الناجح، واللعبة تكون عظيمة بقدر ما احتوته من ذلك "السحر الذهني" الذي نطلق عليه المكر!

الإنسان الأول هو الذي مكر باللغةِ.. فتخلص من "المقطع الصوتي"، الذي تقتصرُ مهمته على توصيل "رسالة" معينة، ليستحدثَ "لغة كلية"، مشبعة بكلِّ الحمولةِ المتصورةِ للحياةِ.. وهذه اللغة هي "الشعر"، الذي لولاه ما تطورت البشريةُ وعيا وقيما ومعرفة. الشعر أبو الفنون وإكسير الحياة، وهو "المنتج العلمي" في كامل حدسه وتجربتهِ.

يرى الشاعر الكبير محمد الحافظ ولد أحمدٌّ أنَّ "كل فكرة تولد في ذهن صاحبها على شكل قصيدة". هذا بالضبط ما يحتاجه "المخلفونَ" وراء أسوار مدينة الشعر، التي "تصورها" البعضُ "ضاحية غير مُشرْعنة"، بينما كان أفلاطون يقوم بتفويج سكان مدينته

الفاضلةِ، التي من السهل الآن إدراك أنها لم تكن، في بذرة فكرتها، غير حكاية راهب فينيقيٍّ في منطقة ما من ذلك "الشرق الغربي".

مكر "الإنسان الشاعر" أولا باستخدام "البيئة البعيدة"!.. فاستظهرَ النجومَ والكواكبَ في "لقية" من المحار قابلة للتعطرِ بالمُـــــغيبِ.

في "وادي آدرس" كان شاعرٌ مُنجِّـمٌ يغرف في أذهان مريديهِ من الأحلامِ بقدر ما يدفعونَ من "ملحِ اليدِ"، ولقد سمعتهُ بأم أذني، وربما بعماتها وخالاتها، يصف ما يراهُ، وهو يحدق في معطن أسرارهِ، قائلا: "هنالك ملايين النجومِ الصغيرةِ المتراصَّةِ في رغوةِ كأس الشاي أمامي، هناك تلال حمراء بسكونِ المشروبِ الأحمرِ في منتصفِ الكَأسِ، وبالمناسبة نحن المجتمع الأبرعُ في لعبة الكأس وأنصافها وأرباعها، فلا توجد كأس محلية فارغة؛ فإمَّا نصفها شاي ونصفها رغوة، وإما كلها شاي أو كلها رغوة"، ثم ينظرُ في اتجاه آخر ويواصل "عشبة الريح، التي زرعتها أناملي بين ضفيرةِ العُشبِ تحوَّلت جداراً، والصخورُ تُبقى جوهرها صلدا مهما تظاهرت الطحالب بالسيطرة عليها".. ثمّ احتسى كأسهُ، وحدَّق نحو كبير مريديه يخاطبهُ بنبرة متأنية: "اللحظات التي تغشى التجاعيد بأجفانكِ لا تربك للدمْعِ رصيفًا، وإشراقة الشمس بجلالها لا "تذهلُ" الألبابَ عن مشهد مهيب آخر حين تذوبُ حَبَّاتُ الندى في "طلاق خلع" مع الأغصانِ.

ما كان "الشاعر المـُنجِّمُ" لينسى بيعتي له.. أتذكرهُ بكامل هيئته ومواعينه وغليونهِ ووسادته الجلديةِ ومخلاة القديد وعلبة السمن المحلي.. أتذكره أيضا مجزءًا بينَ معارفِ الشرفة الثالثة في المبنى.. أضواءُ "دييه" لا تَنطفئ، وأبوابها لا تغلق ونوافذها متصالحة مع النسيمِ.. كنتُ أحفظ أجزاء من لوحة رمادية، وضمن طلاسمها أنَّ البحرَ لا يعطي صكَّ أمانٍ لأي شيءٍ ولو لأمواجهِ، فهو يُكسِّرها أو يُقلِّمُها لتلهَثَ في التلاشي.

السفينة لا تغرقُ أعمقَ من مكانها في اللوحةِ.. وبالسحب والكتب ودخانِ العلبِ واللحنِ المبللِ بعرق أناملي أقول له "في كل وتر مقطوع بقيةُ نغم".

شرفة اللغةِ، التي تطلُّ على مسافة كافية لثرثرة الحمامِ فوقَ السطوحِ، كان لا يغشاها النعاسُ.. وليس في اللغَة كَلِمَةٌ لا يمكنها تجنبُ النومِ العميقِ..

والكلمات على ذمة الحلمِ لا تنامُ كصبايا بني عذرة، فقد تفطن جميل بثينة الحميري إلى أنَّ في رنة خلاخلهنَّ مداءات لا يضيعها الأسمران: التمرُ والجمرُ.

وهكذا "بَـوْثَـنَ" خطوه، فزيْـنَبْتُ رملي وضبابي..

يخطئُ الظنَّ مستنصحي؛ فالريح إن حركت شيئا فلا يعني ذلكَ أنهُ بخيرٍ، ليسَ امتيازا حركيا أن تفتح عينيك لحباتِ الرملِ مهما كانت صقيلة وأنيقة وجميلة، فإنها ستحشو بين جفنيك عشواً فتصبح النافذةُ كهفًا والرؤيةُ عتمةَ ألم.

الشعر الذي لا يمكُر باللغةِ ليس شعراً مُطلقا، لعلهُ شيخوخة تتخثرُ بمستنقعٍ وتَتَـشعَبُ بمستعفنِ التشنّجِ والهذيانِ.

في الخلاصة: أوراقُ الشتاء لا يمسها حظوظٌ أبدا؛ فإن لم تمكر بها عاصفة ثملة كان مصيرها إلى المدفأة.

19

كانَ "الراوي" يبحث عن قافية لا صوت فيها.. عن شجرة لا نبت فيها، عن غصن أجرد كذمة وحش، كان يسعى إلى أن يقتطع عودا جافا ويزيده فقرا بتثقيبه.. وهكذا يمكنه بسهولة متناهية تركيب أصواتهِ لهذا العود الذي سيخضر نغما.. وسيدعى "الناي" (النيفارة).

"الراوي" يزعم أن كثيرا من أشياء الحياة لا بد من تخليصهِ من ظاهر الحياة ليصبح قابلا لدور آخر.. فالناي كان غصنا رطبا يرتجي ثمره وظلهُ ورائحته العطرية.. لم يكن ليمنح دورا آخر دون أخذه مسارا آخر، وهكذا جُفف وجرد من جذوره وثماره ليعطي ثمرة أنغام لا تنتهي ولا تقف عند حدود للجمال والإدهاش.

قد يكون "الناي" أول آلة في التاريخ تقترب من نبض البشر إلى هذه الدرجة فهو حليب الرئات الحالمة والمكسورة، الرئات المتشظية على التحدي ومراوغة المستحيل، وتغييم آفاق النفس البشرية. الرئات التي ترسل بصمة الأرواح إلى من يعنيهم الأمر وإلى من لا يعنيهم الأمر.

و"الناي" خرافة الموسيقى البشريةِ عبر التاريخ.. وليس في هذا ما يختلف عليه. الاختلاف على "الموسيقى الأولى" ماذا كانت؟

أنا أزعمُ أنها كانت نبض الأم. وحين نشترط ارتباط "الموسيقى الأولى" ب"آلة" أقول إنها كانت في نقر الطيور على جذوع الأشجار، وفي صوت أخفاف النوق في معابر الحجارة بالمنحدرات، وفي صوت تكسير العاصفة للأشجار، وفي تصفيق أوراق الشجر تحت الريح، ثم، في هذه الافتراضات غير الملزمة، سأزعم أنَّ "الموسيقى الأولى" كانت في رنة خلخال، حين تعزف النساء مشيا على أقدامهن، في ذلك الزمنِ حيث يمشين على بساط من "الرملِ الأحمر".. قبل سجادات عروض الأزياء وما يرافقها.

حسنا. لنفترض أننا معنيون بما في القدح وليس بشكل القدح ذاته، كما يقول شاعر موريتاني قبل أشهر وهو يسلخ شاته المعلقة في شجرة في ريف ولاية "لويزيانا الأمريكية. لقد كانت الموسيقى الموريتانية تعتمد على آلات معروفة (الطبل، التدينيت، الآردين، الزكعاري، "أم اعصيبه"، الرباب، الناي، والدبوس... إلخ) هذا في "القسم الأدواتي" من موسيقانا.

وهذه خلاصة تكاد تكون عامة عند من تسألهم من الجمهور. والإشكال أن هذا بعيد من الحقيقة تماما.. فقبل عقود كانت الموسيقى الموريتانية تسمع من عشرات الأدوات.

وريثما ينبري المختص المخول كفاءة ومعرفة بوضع تآليف في تصنيف الأدوات الموسيقة الموريتانية.. سأتحدث عن نماذج من هذه الأدوات لا أظن تداركها إلا من سبيلِ المعجزات.

أدركت "موسيقى الطحين"، التي تنتج عن التحكم في التوقيت الزمني لضربات المدق في المهراس. وكان أحد أكبر علماء البلاد في شبابه يدرس تفسير القرآن الكريم، وحين ينتهي من درس التفسير تعتريه حالة من السمو الذهني تدفع به إلى القيام بجولة من دق الطحين.. ويقول إنه يجد في تينك الحركتين العضلية والنغمية أفضل "مهدئ" يخفف من شدة تفاعله مع جو الدرس.. لكأني به يقوم بـ"تأريض ذهني" لامتصاص شحنات الفكر التي تتولد عن ذلك التركيز العميق في معرفة ما.

ولقد روى لي بعضهم أن "أصحاب الأذن البيضاء" كان أحدهم إذا ركب راحلته، يلجأ إلى "تعديل" في مشية جمله بحيث يتمكن من الإنشادِ على ضبط وقع أخفاف الجمل على الأرض.. ولا شك أنَّ هذه من أصعب فنون الموسيقى وأكثرها تأثيرا في النفس.. تصور إنشاد على وقع أخفاف جمل في خلاء.

آثرت في الظلالِ اليوم أن أشير إلى حجم الموروث الثقافي "الضائع" والذي يتطلبُ معجزة لإنقاذ بقية مَروياته، وتجسيد ما أمكن منه وتوثيقهِ. ولعمري تلك مهمة شاقة تنتظر البرنامج الجديد لتنمية وحماية التراث الموريتاني.

20

إنّ القشة تقصم ظهر البعير ولكنها تقوي ظهر البئر.

في ظاهرِ اللحظات النورسيِّة لا نتعرف من خلال صوامع العزلةِ على ما تنضح به تلك المُخيلاتِ غير المُروضةِ. نلجأ، كمسافرينَ بين محطات الحرفِ، إلى ناصية استغواء للطينِ.. حتى لا نجعلَ الانطباعَ لازبًا بقدر رؤيةِ عيون محاجرها حَجَرٌ.

بحسب "التَّقليدِ المشيميِّ"؛ تكادُ شروطُ الإلهامِ تَمنعُهُ.. وإلى حد أنَّ على النصِّ الاستناد في شرعيتهِ إلى "أحفورية سابقة على مهدهِ".. لقد كانَ ذلك، وربما ما يزال في نصفِ هذه الدنيا، آفة سلوكِية تقومُ على فرض "الاستذواق".

على عكس الشرر الذي تلاعب برؤية "الكسعي"، قد يسعفنا ربع زاوية نظر في معالجةِ التعتيم الخادش للصورة غير العابرة لمأزق الحداثة؛ إذا افترضنا أنَّه من غير المُمكنِ أن يُسايرَ أحدٌ أحداً في أنساق فكرية تحولُ بينها وبين بعضها البعض جدرٌ كاملة.

ولكن الإنسان الذي ينتج الحداثةَ غير معنيٍّ وغير ملزمٍ، بل لا يجوز لهُ الارتهانُ إلى "حسابات حقل بلا بذور".. شاعر اليوم في "بيئة مشبعة" بـ"اللاممكن سابقا". لنتأمل بعض الذي يجري دونَ انتباهٍ، ولا نقبل مجاملة الجامدين الذينَ يرفضون حتى التجريب في اللغة، بينما تجاوزتهم "لغة واقع معيش"، فيتناسون، مثلا، أن الريح تضيء بيوتهم بأنظف إنارة، وأنَّ مخرز الريحِ أصبح أفضل لخياطة الأثوابِ ولـمِّ شملِ المُرقعاتِ.

لكنَّ حاصدي موسم النعيبِ يجادلُونَ من مستوى صيحتهم في الوادي..

ممنوع الغلوُّ والتوهج شغفًا بنصٍّ يتجاوز نبرة الأدرِد، ممنوعٌ فكُّ الأسرِ عن "بوابات" طروادة، ممنوعٌ الحديث عن تسلُّلِ الغِوَايَاتِ في فناءٍ مترفٍ مندسٍ على سلوكِ بصيرةٍ رصينة لا تشاقق المشاكسة المتمرسة.

الحنكةَ المعتَّقةَ بالنَّهمِ لا تسنفُ رؤيتكَ خلالَ الضبابِ ولو كنتَ على بعدِ شبرينِ من أنفاسِ الطريدةِ.. فهل هنالك حلٌّ قرنفليّ بينَ المُخاطرِ وخاطرهِ في مناورةٍ مخلبيَّةٍ إلى هذا الحد الشَّجنيِّ غير المعمدِ في رقوقِ "حي الحطب" والآبار المطويةِ بالقشِّ!

"لا دهشة في الأهل".. كما يشاعُ عن مُطربة الحيِّ، وبالطبع عن سمّاكهِ وسمكرييهِ..

يستحضرون دائما أن "الألفة تُذهب الدهشة"، ولكنهم يتناسون فيعودون إلى "الوقيعةِ" باللامألوف.

قوى الانزلاقِ لا تعارضُ تشحيمَ الدروبِ. فهل يكون المبدعون استثناءً؟ من يضمن ولاءَ البوصلةَ للمعيارِ إذا قامَ "مغامر" مدعوم بنُدرة رصيده، بغرس أظافره في اللحم الميتِ منذ قرونٍ، سيفعل لأنهُ غيرُ معنيٍّ مُطلقا بمن "تَمْشي عقولهم بمحاذاةِ أقدامهم".

إنّ الترهلَ النصّي لا يُبشرُ بتجلِّياتٍ مُذهلةٍ، ولا يمكنهُ وسم جيف الكلماتِ بـ"المحايثةِ" التي تعتمرُ مشعر السخام.

كانت نواكشوط مطلع السبعينات من القرن العشرينِ قد دشنت "ثورة شعرية" حقيقية سعى من خلالها الشعراء الرواد إلى إحداثِ قطيعة مع ما يسميه أحدهم بشعر "ربع عزة".

ولقد تمكن شعراء قلائل من إحداث فارق كبير في مسار المدرسة الشعرية الوطنيةِ.

وتوالت الأجيالُ، التي حارب روادها على جبهتين:

الأولى؛ جبهة القصيدة العمودية الحداثية. وسنختصر على أنَّ أصحاب هذا الخيار رضخوا للمعيار الرئيس للقصيدة العربية قبل

ثلاثة آلاف عام. بغض النظر عن حكاية التجديد من الداخل والصور والأخيلة وباقي الاعتبارات.

الثانية؛ جبهة القصيدة الحداثية، التي لم تتقيد بغير شاعرية الإبداع.. ولا شكَّ أن هؤلاء قلة القلة، ولكن كانت الغلبة لـ"لغتهم وعوالمهم الشعرية" على حساب أولئك الذين لا يعترفون بهم، ومن بينهم من أنفقَ من الجهدِ في الشماتة والهزلِ الشيء الكثير ليوزع ترهاتهِ باسم "محاربة الهرطقة" تارةً، وباسم "تثبيت القيم" تارةً أخرى.. بينما لم يكن هذا "الصنف المسكين" من أشباهِ الشعراءِ والممثلين على خشبةِ النقدِ، "يزيدُ صفحات التاريخ" إلا بشهادةِ خروجهِ منه.

21

كم كانَ الشفقُ لثامَ الفجر؛ لكن الذي تُوسوسهُ سطوةُ الربوةِ لم ينتبه إلى أنَّ في كل شفق عشراتِ القراءات أكثر مما فيه من ألوان! لكنَّ السماء "ستمطرُ" برغم أنف **المزنة الكاذبة، المزنة** التي لا يصدق عليها "ربع غيم".

لنحذر قليلًا من أن تجرفنا زلةٌ، ونحن نستند إلى "العلندا"، ذلك النبات الاتكاليُّ البديع التودُّدِ. إنه يتواطأ مع "الأشياء العموديةِ"؛ ولا ينسى بعدَهُ الأفُقِيَّ بتاتا.

"نَتَعَلَنْدُ" بالقول إنَّ لكل بيئة لغتها، والثقافة البيئية ليست بضع كلمات وأسماء وألقاب للشجر أو الحجر، أو ما عند الناس من مدر، بل تلك البيئة التي تبقى خالدة في "العمل الفني" والتي يُنتجها الرسامُ "ألوانا أخرى"، والشاعرُ صُورا وقصائدَ غير نمطية، والحكواتيُّ قصصًا وأبطالا وشخوصا وأشباحًا ودمى وتيماتٍ مشبعة بالخرافات

والأساطيرِ.. هذه هي البيئة التي نبحث عنها كلما بدأنا إنشاد مطلع لقصيدة أو فتحنا فصلا من روايةٍ موريتانية.

أولُ روائيٍّ في هذا البلد رتَّب إلى حد مُريح فنيًّا "عالمهُ البيئيَّ"؛ ثم عاد في عملٍ أكثر تأصيلًا في "مطارحةِ البيئة"؛ أو هو ذلك الذي سميتُهُ ذات مرة، في هذه الصفحة من جريدة "الشعب"، بـ"أجمل مراثي الطبيعة" عندما شرفني الشاعر الكبير أحمدٌّ ولد عبد القادر باختياري لكتابة المقال التعريفي بروايتهِ "العيون الشاخصة".

حين قرأت رواية "العيون الشاخصة" أدركت أكثر حجم تأثير "البيئة" في مسيرة الشعوب والحضاراتِ.. وبالمناسبةِ نُشرتْ تلك الرواية في جميع الدول العربية في يوم واحد بفضل المشروع، الذي نتمنى أن يتكرر، وهو مشروع "كتاب في جريدة"، والذي كانت جريدتنا الغراء "الشعب" واحدة من الصحف العربية التي رعتهُ وتبنتهُ، وكان له دور كبير في إيصال عشرات الكتب إلى ملايين القراء العرب عبر المعمورة، لكنَّ دورهُ الأكبر تمثل في آليةِ اختيار الكتب للنشر، ما وفرَ على عشراتِ القراء عناء البحث عن الروايات والدواوين المناسبة، بمعنى أنَّ المشروع كان وسيلة لإطلاع القارئ غير المحترف على "زبدة الأذهان والمطابع" وهذه مهمة نبيلة.

اليوم هنالك إشكالاتٌ كبيرة متعلقة بالقراءةِ: لمن وماذا نقرأ؟

غير أن هذا "قلقٌ مريح" نسبيا، ما دامت النية تتجه للتحصيل المعرفيِّ.

محاكاة القراءة حتى في "أدغال الفلسفة والفكر" و"هموم الكبار"؛ أمر ميسور أبجديا.. غير الميسور يتعلق بـ"قراءة أخرى" غير تقليديةٍ، ولا تقبل المحاكاةِ والتزييف وإلا تجلَّت على هيئة "إدانة" للكاتبِ.

إنَّ على الكاتب إنجاز "قراءاتٍ تفاعلية" باستغلالِ بيئته. فالمبدع لا ينتج "نصًّا وحيدَ القراءةِ" مطلقًا. ومن أفضل السبل إلى "نص القراءاتِ المُتعددةِ" أن يستنبتَ الكاتبُ بيئة توازي بيئتهُ ثمَّ يُوائِمُ بينهما.

قلة هم الكتاب الموريتانيون الذين نميزهم من "بيئتهم"، ونتعرف على ملامحهم من السطر الأول؛ حيث تتموضعُ بين الكلماتِ رائحةُ الأعشابِ وترتسمُ تجاعيدُ الرملِ وانحناءاتهُ.

أكَادُ أخرج بانطباع أنَّ كبار المبدعين الموريتانيين هم أولئك الذين أثّثت نصوصهم بالبيئتين: المحليةِ والافتراضيةِ "الموازية".

لقد كانت الأعمالُ الأدبيةِ كبيرة بقدر ما كانَ "اعتمادها" على البعدِ البيئيِّ كبيرًا.. وتجلى ذلك في النصوص التي أنتجت خلال "التحوُّلِ البيئي" المريع، الذي شهدتهُ البلادُ فيما عرف بـ"عُقود الجفافِ"، حيث تحولت البيئة فجأة إلى قاحلة ماحلة جافة لا ترحم، وبطريقة شكلت صدمة نفسية لكبار الأدباء الذين شبوا في بيئة خصبة، فإذا

بمخلب القحطِ لا يترك شيئا: لا نبتا ولا شجرا.. بل استولى الجفافُ على الأفقِ بتلك الرياح السموم الهبوب التي تحطم الأعصاب وتجعل البصر يشمئزُّ من وجهتِه، ويكادُ يلاعنُ بوصلتهُ في ذلك الطقسِ الفَظَائِعيِّ الرهيب، الذي لا يمكن أن يُحولَ مأساويته إلى فنٍّ سوى العبقرية الأدبية.

22

عن عبقريَّةِ الظمأ؛ وشعيرة الظلِّ؛ وغريزة التأويل!

يصعبُ الحديث عن تعدد منابع السردِ الحكواتي في موريتانيا؛ السرد الروائي القصصي، فمنابع هذا السرد كثيرة.. ولكن ما يهمنا اليوم هو روافده، حتى لا نقول جذور أو أساسات، أو تراث ذلكَ "السرد"، أو كلّ ما يمكنُ أن يُسمِّدَ "حقل اللسان الموريتاني" في فضائهِ المجتمعي الوطني وامتداداتهِ في "ثقافة الجوار".

إن أي روائيٍّ يمكنه أن يعتمِدَ و"يَتَعَامَد" على كم ضخم جدا من القصصِ والمرويات والحكايات والأساطير والخرافاتِ ذاتِ المنشأ "المحليِّ"، وإنَّ طموحنا بوصفنا قراء ومتابعين لحقلِ الأدب والثقافة في هذا الربع من "بلادِ الحضارتين"، هو أن نقرأ ما نتعرف إلينا فيهِ من خلفياتٍ لا يمكن بحال من الأحوال أن تُغيَّبَ إلا غُيِّبَتْ معها

أزمنةٌ من ذاكرتنا وجزء مِفصليٌّ من حياتِنا الاجتماعية.. و"المجتمع هو التاريخ المؤسس".

إنَّ الرواياتِ والقصصَ التي رويت على لسان الجداتِ، والسُّمار؛ وبعضهم نخبة، وبعضهم نخبة النخبة، تحمل حكاياتٍ مشبعةً بالحيواتِ الفكرية العميقةِ، وإلى حدٍّ يندى له جبين الحرفِ.

وذلك ما يشكلُ "خامة غابوية"؛ كلّ "ورقة فيهِ تغطي شجرةَ" منتوج روائيٍّ أو شعريٍّ من شأنِ توظيفهِ أن يكونَ الشرارة التي تقدح لتنيرَ الصلة الطينيةِ بذاتِ هويتنا.

وإن كانَ لا شكَّ أنَّ "السمة الحضارية البشرية" في كل القاراتِ هي "البنيةِ المشتركة" أو "كأنها هيَّ"، إلا أنَّ الحِبْرَ الذي لا ينقلُ "هويتَه المرويةَ" أو ذاكرته الواعية، لا يضيِّعُ ذاته فحسب، بل يسلمُ بقيةَ "الخلفيةِ المحلية المغيبة" إلى ألويةَ النسيانِ، فنكون أمامَ "وافد غريب" حتى لو كان "غريبا جميلا" ومقبولا ومبدعا فإنه يبقى "إقصاء ذاتيا".. بالتأكيدِ هذا ما نتمنى أن يتغلب عليهِ السرديون الموريتانيون خلال مشاريع أعمالهم الإبداعية.. وإنَّ أيَّ إنسان مطلع على تاريخ الليالي المعشبة بالظلامِ والنهاراتِ المُحْوَرَّةِ بالمطالع لقادرٌ أن يكوِّنَ من تراثنا الخاص ذاكرة حكواتية لا تقلّ قيمة عن نظيراتِها الشهرزاديةِ.

لن نذهب بعيدا في التنظير المُجفف تحتَ ظلال القيظ.. تعلمون أننا معشر الموريتانيين نعيش في بيئة ريفية: فلاحية وحيوانية، فهل يمكن أن نلمَّ بجزء ولو يسير مما توفره هذه البيئة من سرديات مدهشة!؟

على كل حال؛ يسهل الأمر حين نأتي على ذكر مجال واحد. مثلا: صورة ذلك الفلاح في حقله؛ الفلاح الذي يدفن البذور ويطرد الطيور في علاقة "استبتار" بين الأفق والطينِ.. هذا الفلاح الموريتاني نفسه يعدُّ حقلا بديعًا من التجارب والحكمة والموعظة الأدبية.

ولقد استمعت إلى بعض ما يرويهِ الفلاح الشَّماميُّ من حكمه التي أذكر أنني أوردت بعضها في تقارير دولية حين نقلتُ ذات يوم عن ذلك الفلاح قوله "إنَّ الأصوات العالية قد تطرد الطيور عن الحقلِ لكنها لا تنبت البذور".

لنترك ذلك الفلاح ونتجه إلى شلالات سرديةٍ أخرى مذهلة؛ لنستحضر تاريخنا مع أي حيوان داجن. قصص الموريتانيِّ مع كلابه وحميره وبقرهِ ونوقه وغنيماتهِ... كلُّ ذلك إن كان يعني شيئا فهو أن "إنسان هذا القفرِ" مليء بعجيب الكنوز الروائية التي لا تحتاج إلا لمن يستخرجها ويصقلها ويعيد اكتشاف بريقها فيطلقها ضمن ملحمة السرد الموريتانيِّ التي قد تجعلُ راويها يشيبُ وهو في جملتهِ الأولى.

إنَّ "القارئ الناقد" ليحار من حرص بعض الكتاب الموريتانيين على "صيانة طواحين المصارعة" ومحاولة "تسعيد" أحجار سيزيفِ، ونقل الاقتباساتِ عن ذلك "الآخر"، بينما يتجاوزونَ "ثرواتهم السردية".. وبرجاء لا تقل لي إنَّ "خاتم السرد" في "سرٍّ" وإنَّ ذهب "الشكاتِ" أقلُّ بريقا أو قيمة من ذهب تلك العاصمة أو تلك.

صدق الروائي النيجري وولي سوينكا حين قال إنَّ الإبداع يأتي من الجنوبِ.

23

وتنسحب شمس الغروب مخلفةً وراءها سديم نجوم كما لو أن قطعة حرير تسحب من فوق جواهر.

أذكر المشهد كما هو من حولنا شرقا وغربا وشمالا حيث قطيع النوق وزريبة الحملان. وسدنة المشويِّ يعلمونَ أنّ الخروفَ "الشهرينيَّ" هو أفضل شواء في الكونِ.

على الأرضِ؛ تشبهَت بملامح وجهه الحمراء ألسنةُ اللهب المنسدلةُ عموديا؛ حيثُ تعطي "تازنت" لهبًا فريدًا؛ يسميهِ البدو بـ"ملك اللهب".

بعد أن طرقهُ على النصف غير المشتعل من الشهاب، أعاد تلقيم غليونِهِ مرسلًا غيماتٍ "لا شكلية" وكأنه فنان سرياليٌّ يرسمُ أشباحَ أفكارِهِ وعوالمِهِ في الهواء الطلقِ؛ قبل أن تكشف شيفرة خاصة شكوى النوق من الحفلِ، فأسرعَ يحلب، وكاد القدح يحرقني من شدةِ دفئهِ وأنا أغيِّبُ فيه ثلث وجهي مطفئًا وعثاء يوم طويل من

عبور المجابات، قادمًا من عين القفارِ التي ترمقُ عابرَها دونَ أن يرمشَ لها جفنٌ.

العبورُ من قفرٍ إلى قفرٍ للفكاكِ من الجدب يتيح للزمن تسجيل تفاصيلهِ في لاوعينا إلى الأبدِ.

إنه زمن بلا قشور، عندما لا يَسمحُ الزمن برفاهيةِ القشورِ لا تنخل طقسًا لتوتِّر أُفُقًا، سرْ فحسب، وستلتقي ما تتعرف به لأول مرةٍ من هذا "الأديمِ المَعَرِّي" بعجائِبِه التي تقشعرُّ لها الأذهانُ.

سحب نفسا آخرَ من الغليون المشتعل كالشهاب النجميِّ المعلق في السماء: "أتعلم فيمَ أفكر؟". قلت: "أفصح.. فلا أخالني وليا ولعلك لا تريدني عرافا". قال: "سبحان الله. سمعتك وأنتَ على البعير تقرأ رائية المازني ثعلبة بن صُعير، واستوعبتُ من اسم محبوبته "عمرة" ما لم أتفطن له من قبلُ رغم انشغالي بالخوف من تأرجحِ رحلكَ.. أنت تجيد ركوب الرحلِ من دون حبال ولا يركب الرحلَ بأشطانه إلا أهلُ المدر، أولئك الحريصون على جدرانهم سمعًا ورؤية، مستويةً أو منقضةً، جدرانُ القرى أغلى ثمنًا حين تنقضُّ كما السنابلُ أحلى حينَ تقطفُ".

وارتشف كأسهُ مستطردا: "سؤالي؟.. وسأنتظرك حتى تعيد الكرة ارتواءً، ثم شبعًا.. سنشوي الخروف "بونكطة" فقد أكملَ شهره..

واعجباه.. الحملانُ من بطن إلى بطن.. سنرحل عند منتصف الليل، فالنجومُ تخبرني أنَّ غدًا سيكون يومًا قائظًا.

لنرحلَ؛ فما يزال سنامُ المرعى بعيدا جدا.. وراء الكديةِ، هناكَ ستعثر على ما يسرُّكَ من كلأٍ في أكرم الخلاء وما يروي عطشك الأبديَّ من الماء، ستستجبِلُ الإبلُ و"تيبلُ" الشاء وترتاح الدلاء".

وزاد: "سأجيبُ عنكَ.. لاحظتُ تخلي الناس عن الأسلوبِ الذي تسببَ بتضلعِ الشناقطةِ في اللغة والأدب، فقد كانت التهجئة تبدأ للأطفال بتحفيظهم أمهات القصائد المديحيةِ وبذلك يتمكنُ الطفل من اللغةِ فصاحةً وسلاقةً ويحوز بنيتهُ الذهنيةَ أفكارًا وأخيلةً ومبادئ واهتمامات ذات سموّ.. ذلكَ زمان وهذا زمانٌ آخرَ يتشكلُ بخلقٍ آخر..

كما تعلم حفظنا الميمية والهمزية ونحن في الخامسَة من عمرنا فأصبحنا نقرضُ الشعر تلقائيا وأظافرنا بلين الورد".

يحطُّ رحلهُ عندَ "الضحى الأول"، ويستأنف حديثه: "غريبٌ تخلي المجتمعِ عن أسلوبٍ عجائبيّ النتيجةِ في ثروتهِ اللغويةِ.. لا أرى أنَّ من لم "يتقومس" إنسانٌ مجروحٌ حضارياً ومعرفياً، ولكنّ "تراث الدرس الشنقيطي" يستحق الاستزادة عليه بناء".

استظلَّ شجرةَ الطلحِ، وظلَّ يعيدُ تعبئة كأس الشاي والغليون بسرعة تفريغهما على ترنيمهِ.. كان في صومعةٍ من علوٍّ خاصٍ، يتصوفُ بذائقتهِ الشعريةِ وخيالهِ الفياض.

أتذكره كلَّما قرأتُ أدبًا ينبئ بفقر صاحبه لغة وخيالا، حيث لا الرفادة ولا الريادة.

تتحول الظلالُ مهما غيرها سكنَ.

عندما التقيته آخر مرةٍ في "العينِ" عانقني بحرارةٍ وهو يقول "كيف تتخلى عن وزنِ الشعر.. لا يصلحُ إلا موزونا!". قلتُ لهُ: "أجيد ركوب الرحلِ دون حبالٍ".

24

تخضرُّ اللحظاتُ في الأغصانِ التي تحدوها من تحتِها سمرةُ ظلالِها؛ حين تتوزع الأحياءُ في "الطرحة"، ويسهل السفرُ على المسنينَ، الذين ينتهزونَ فرصة تكفل الشتاء بمهمةِ تجميعِ "الأهلِ" في ديار متقاربة "لا ينقطع بينها الأذان"، والقيام بما يلزم من صلةِ رحم عبرَ زيارات متبادلة يمرر الكبار خلالها ما اختزنته بقايا ذاكرة ما كان يتصورُ يومًا أن "وخمَ الدهر" قد يطالُها.

كانت فرصة للصغار للاستماع إلى ما تجودُ به أحاديثُ الكبار في مجالسَ يعطرها الصفاء والنقاء والحكمة والأدبُ، ورغمَ أنها مجالس مفتوحة فإنها "غير عمومية" في قطاف ثمارها.

ذلك أن للكبارِ دائمًا ما يحتكرونهُ قولا على طريقتهم الخاصةِ، فيستحيلُ أن تستوي "منحنياتُ الحديثِ" في منظومةٍ أهليةٍ مثقلةٍ بحمولةٍ اجتماعيةٍ لا تغادر "ظهرَ حرف" بنبرةٍ واحدةٍ.

إذا؛ بدوافع شتى، في تلك المجالس المفتوحة، اختَطَّ الكبارُ في أحاديثهم "آلية إغلاق" عبر تشفيرٍ لغويٍّ يصعبُ استيعابهُ حتى على النخبة، خاصة حين يتعلق بأسرار القوم وما يرتبطُ بأوضاعهم و"بيِّـنَاتِهم" وروابطهم وفق عطنِ التقاليد.

تلك "اللغة الشفرية" لا تُظهِرُ حمولتَها بسهولة وتعبرُ بين أخاديد عقول الكبار كما تعبر الغيمة بسرٍّ رعودها وبروقها دون أن تشعر الأرض من تحتها.

وحين يكبرُ المرء يبدأ الآخرون مَدَّ سلالم تلك الشيفرة إلى ظلالِ مخارجِ حُروفِه؛ وهناك يكتشفُ كم "مرَّ من بين أذنيه"، ودون أن يشعر، من أسرار وخطط وطرائف ونكات وغير ذلك.

دعونا نذكرْ بأنَّ هنالك "لغاتٍ داخلَ اللغة" عندَ كل مجتمع؛ وأن كثيرًا من تلك اللغات الداخليةِ عندَ شرائح وأجيال من مجتمعنا قد تلاشت، وإن بقيت منها نُـتَـفٌ في أطراف الصحراء. حيث يتحفزُ الاندثارُ دائما، وبكل مخلبية أصيلة.

أي باحث عمد إلى تقليم ولو جزءٍ يسيرٍ من أظافر النسيان، سيتمكن من استعادة نماذجَ تقريبية من "التشفير اللغوي" الذي استخدم في هذا المجتمع خلال القرون الماضية، وأخذ تمظهراتٍ كثيرة، بحسب الاختصاص والمهنة والحاجة، والنجيلة الاجتماعية، التي استأنست

إلى "سلوكها اللغوي" بخصائصه وتشفيراته حادة الذكاء. ندرك بالطبع أن المجاز أخذ متسعه في هذا الإطار، ولا غرو، فاللغة مجاز ولعل العقل والفكر كذلك أيضا.

بالطبع يحضرُ أولا "النموذج الأدبي"، للتشفير اللغوي الذي طبع تعاملاتٍ وأحداثًا مفصليةً نسبيا في تاريخنا الاجتماعي والسياسي عبر الحقب.

والأمثلة كثيرة جدا في أغراض كالتوجيه، المدح، الهجاء، وفي السياسة، التي نتذكر مثال "الرسائل الشعرية المشفرة" بين أمراء الإمارات الموريتانية ورسائل النخب فيما بينها على تعدد اختصاصاتها.

هل حظيَّ هذا الموضوع بلفتة اهتمام من المختصين! أشكُّ في ذلك برغم "الحافظة الأدبية"، التي خلدت "مقتطفات" لا غير.. إنما أصبحت "إحالاتُ وأنساقُ فهم" في فتراتٍ سابقةٍ بمنزلة أجداث بعد فقدان نبضها في الحديث اليوميِّ.. ولعله من "الإجحاف"، إلى حدٍّ ما، أن نطالبَ "جيل الإيموجي" بترتيب آليات فهمه لأسلاف المعاني السابقة للكلمات. فالكلمات تبدل جلدها بين جيل وآخر.. ويتبدل مع ذلكَ "نظام استيعاب" ليس بكاملِ جلده فحسب، بل وبدمه ولحمه وشحمه وعمامته.

لا أعرف إن كنت وفقت في توصيل "رسالة" أخرى إلى البريد "الوارد" للمختصينَ، أم أنَّها رسالة في طريقِها إلى خانة تصنيف آخر.

ربما يحدث ذلك! فقد لفت انتباهي هذا الموضوع عندما ناقشت "عن بعد" مع شخصيةٍ ثقافيةٍ هامةٍ عبارات شاع استخدامها لمدلول معين في النصف الأول من القرن العشرين، ووجدتُ أنَّ "صاحبي" يتخبطُ "خارج المعنى" تماما، فقلتُ "وماذا عن غيركَ"؟! ثم أجبته: "إنَّ أعشاش الغمامِ، التي تصدحُ برقــًا قد لا "تنبتُ" ريشة واحدةً.. وعلى الأرضِ لا يقطعُ الدربَ حافر لا حدوةَ له!".

25

هل كانَ التنجيم أولَ "فن" يستثمرُ في "التشكيل البصري" من خلال آلية الألوانِ وسردياتِها!. ليأخذ بعد ذلك مسارَهَ المربحَ من آيتي الظلمة والإضاءة، فعبر آلاف السنين وكلِّ الحضَارات التي تعدونَ، أسَّس المُنَجمونَ "سوقا عامرا بالوهمِ"؛ رائجًا ومربحًا، يعتمدُ على سردياتٍ عن "البعد التشكيلي المرئي" للنجومِ والكواكبِ مطالعَ ومواقيتَ.. وربما كان "بعد" تلك النجوم دافعا مركزيا لاستغلالها في التنجيم اعتمادا على ما عبَّر عنه المثل الموريتاني بدقة احترافية (الكذاب يبعد شهوده).. على أنَّ "الجانب الأرضي" للتنجيم من ودعٍ وضربِ رملٍ وقراءةِ فناجين وأكفٍّ قائم إلى حد كبير على إدارة اللعبة تشكيليا بألوانَ وألفاظ ينتجها "الرائي" (السارد) دونَ أن تكونَ بالضرورةِ حقيقةَ "المرئي".

قد يزعم البعض أنَّ الساحرَ أول من استخدمَ الألوانَ لخداع حاسة البصر. لا بأس.. أوليس التنجيم "فرعًا بيروقراطيًّا" من السحرِ والشَّعوذةِ!؟ إن كانَ كذلك، فقد كانَ البشرُ محظوظينَ بوجودِ الشِّعر

لأنهُ قدم التشكيلَ البصريَّ للأشياءِ بطريقة مكنتهُ من تطهيرِ وتطويبِ البصرِ والتبصير باعتبارهما جسرَيْ أمان إلى القلبِ والعقلِ.

هذه الأيام أصبحَ خبرًا عاديا أن تنتجَ شركة تقنية شاشة قادرة على عرض أكثر من "مليار لون"!.. فكبرياتُ شركاتِ التقنية العالمية في سباق للفوز بـ"ثروة الإبصار" باعتبار "الفرجة البصرية" اليوم أصبحت سبيلًا وحيدًا وسهلًا إلى "تسليعِ بقيةِ الإنسانِ في الناسِ".

فمن يملكْ أبصارَ الناسِ ملكَ أفئدتهم وتحكَّم في أذواقهم فغيَّر فيها حتى حسب "رؤيته الخام".. ولا أماري في القولِ إنَّ التأثيرَ التشكيليَّ في حياةِ البشر لم يحظ حتى الآن بما يستحقّ من دراساتٍ منذُ كان بدافع حفظِ المقدسِ نصا أو رسماً إلى "القمرة الهيثمية".

هل يحتاج البصر البشريُّ كلَّ هذا الزخم اللوني ليشبعَ رغبته التشكيلية؟ وفق ما قرأتُ فإنَّ الإجابة معقدة حتى على المختصين.. بينما يتبادر إلى ذهني السؤال: "ماذا أعدَّ أدباءُ الحداثة أمامَ هذا "الإشكال"، غير الطارئ، من آلياتٍ للتعاطي تشكيليا مع حاسةِ الإبصارِ التي تستولي عليها يومًا بعد آخرَ صناعاتُ الإبهارِ البصري لتصبح "الرقم الفاعل" في كلِّ شيء تسليعيا وفكريا؟".

إنَّ كل هذا المطلعِ السَّرْديِّ "المُبَنْـزَن" أو "المُكَبْـرَت" لا يسعى إلى تذخيرِ حشيشةِ النقد بأيِّ شرارة!.. فأنا أعرف أنَّ الأدبَ الموريتاني غير الفقير تشكيليا يكادُ يكونُ "حليبَ غولٍ" على ندرتهِ، بيد أنَّ "التشكيلُ" طَفح من خلالهِ بزهوٍ مريح.

أما الغريبُ فكون الصورة التشكيلية في الأدَبِ الموريتاني "صورةً مُغنّيةً" في الدرسِ المَحظري، الذي تميزَ بأسلوبٍ "تشعبيٍّ" فريد من نوعهِ. والفكرةُ الأخيرةِ ليست لي.

لكنَّ الأغرب أنَّ الدرس الموريتاني الحديث (في المدارسِ والجامعاتِ) أكثر ابتعاداً من هذا الموضوع، الذي أجدني اليوم، وبعدَ اللف نصف دائرة، أكتب عنهُ لأقولُ: "إنَّ فنَّ التشكيلِ هو روح القصيدة في المستقبلِ كما كانت الموسيقى روحها إلى حين".

إنَّ هذا لا يتعلق بتصريحات د. سعيد يقطين التي أطلقها نهاية الأسبوع من نواكشوط، ودعا من خلالها إلى "ترفيع الشعر العربي عن الغنائية والتركيز على أبعاده الإبداعية"، والسعي إلى تطويره انطلاقًا من التراث الشعريِّ العربيِّ.

كما أنه لا يتعلق بدعوتِهِ إلى إعادة كتابة الشعر الجاهليِّ بأشكالٍ غير تناظريةٍ.

أبداً؛ لا يتعلق التفكيرُ في هذا المبحثَ بـ"الأسئلة اليقطينيةِ".. فمن يعنيهِ الأمر ما يزالُ في "بطنِ الحوت"، وقد تكون دعوة المغاضبينَ إلى استهلالات غير نمطيةٍ دعوةً عبثيةً لا واديَّ لمن يُزمزمُ نجميتها سحرًا أو شعراً.

26

ثمة دائمًا متسعٌ من الضيِّق؛ وفي اتجاهٍ ما، عندَ من لا يخالسُ النظرَ إلى بريقِ محبرته.. ثمةَ رشقةٌ من الأفق تنغرسُ بعينيكَ لتزرع في مخيلتكَ "مبدأ الارتفاعِ الأُفقيِّ".. فارفعْ رأسكَ حيثُ "لا طينَ". ولا تلقِ صنارةً واحدةً في "بركة الإدريسي"، ففي "سرديات الماءِ" يتنكّرُ الموجُ على شكلِ شَاطئٍ، بينما يتورَّدُ المَحَارُ فوقَ أقنعةِ وجوهِ المحاربينَ المَرتبكينَ. أما الرملُ فقد فشلَ في التنكرِ ولهذا ظلَّ رملاً أرْمَلَ.. وعليك أنتَ بالذاتِ، ومن بينِ المولعينَ بما بعد الأبجديةِ، أنْ تتورَّقَ في الصمتِ بعد أن تجذرتَ في الكلامِ.. كفَّ عنِ النَّومِ في الجَرسِ. واحدسْ إغفاءةَ اللحنِ بينَ أنْملتين على ميْسرةٍ أو ميْمنةٍ. وفكرْ أقلَّ.. فكر أقلَّ؛ فليس بينكَ وبين أوردَةِ الأحلامِ غير إسفينٍ زلقٍ من الشكِّ والريبةِ والظنِّ، واعلمْ أنَّ البحرَ لا يمنحُ سرَّهُ لمن

ينحدر كصنارة في جوفِ الصيدِ، كما أنَّ البرَّ لا يفوضُ عيبتهُ إلى من يتظاهر بالعجزِ على طريقةِ الشَّرَكِ..

الرؤيةُ فنُّ الترياقِ في كل سبيلٍ، وفنُّ السبيلِ أرقى من الإبصَارِ العادي.. الحفرُ ليست كلها سلالةَ عَثرَات، إنها قد تُـرمِّمُ شُقُوقَ قدميكَ، وتمنحكَ فرصةً للتَّـقدمِ أكثر مما تعطيكَ الأرضياتُ المستويةُ؛ ومن السهلِ تصورُ أنَّ الحفرَ وسيلة إلى الارتقاءِ حين نقومُ بتحويلها إلى سَلالِمَ للصعودِ.

لا تُـقمصنْ حكايةَ "ديبه"، فبعد أن أعياهُ "تَطْلِيْحُ القتادِ" أوزَعَهُ خاطِرُ فيلسوف بافاريا يورغن هابرماس عن "جودةِ التناقض الوجداني بالنسبةِ للشعر".. إيه. نعم. أما نحن في الصحراء فنعمدُ إلى سرقةِ الظلِّ من أغصانِ السَّمَرَاتِ التي خَبَّها العلندى باسمِ نشيدِ الرَّجلِ المبْطُونِ شرقيَّ "وادي الطلح".. كانَ ملحَ الظنِّ فنال جزاءهُ بعد محاولته "توريقِ الجذور".. ولقد وتَّـرَهُ الزّللُ فنسيَّ وَتَـرَهُ قبلَ نافلةِ الريحِ، فأخْفَتَهُ الغُبارُ ثمَّ "حَرْبَـنَهُ" وفرَضَ عليهِ أنْ "يُحَـرْبِـنَ" باءاتهِ وياءاتهِ قبلَ يومِ التذخير..

أخبرهُ بنصيبٍ من "قسمةِ عروة"، فيجيز فكرتهُ بقول سهل بن هارون "إن الشيء من غير معدنه أغرب"..

لم يبلغ العالم بكلِّ سموٍّ فلسفتهِ "الخيرية" وإبداعهِ الفكري والأدبي تلك الذروة التي رسمها لنا عروة بن الورد بتقسيم جسمه بين جسومٍ كثيرةٍ.. سينتحلونَ تصرفهُ في "غابات شيروود"، لكنَّ الريادةَ غير قابلة للحجبِ.

في الأفقِ يُحلقُ الطائرُ وقد تحلقُ القشةُ أعلى ارتفاعا من كلِّ الطيور، بيد أنَّ القشةَ تبقى حيث هي في قيمتها وحقيقتها مهما زَفَّها النسيمُ.. وفي كلِّ الأحوالِ لن تستطيعَ أن تقصم ظهرَ الأفقِ.

أعيدُ ترديدها في ذات المنقوشِ الحجريِّ: "عندما تضيعُ معالمُ الأرض تبرزُ معالم السماء". لا شكَّ في إحداثيات الشروق داخلَ خرائطِ المَغيبِ في "الزمنِ/القطيعِ" فمن أسرَ الغولَ أكملَ قيدَ المُخَيلة.

الخلاصةُ الزجاجيةُ من هذه المجازاتِ والإحالاتِ الزئبقيةِ، أنَّ إبداعَ اليوم إبداعٌ فقيرٌ في القيمِ وفي التجديدِ. إبداع مستسلم للاستلابِ والمحاكاةَ والتكرارَ. نقرأ مقالة مطولة لفيلسوف أو مفكر ونخرج منها باقتناع أنهُ يقوم بمحاولةِ التفافٍ ليوازيَّ "الخِطَابَ العاميَّ" الذي تنتجه الدهماء في شبكاتِ التواصلِ الاجتماعي.

نقرأ حصيلةَ عام من إنتاج شاعر أو ساردٍ فلا نخرج بـ"مكسبٍ واحد". ليس هنالك غير نقل مشاهد بتعديل طفيف عن مشاهدَ سابقةٍ. حتى في السنوات غير العاديةِ! فاستعراض لما كتبه أهمّ

الفلاسفة والمفكرين والشعراء الشرقيين والغربيين خلال "العام الكوفيديِّ الأول" لا يضيفُ شيئا جوهريا وفقَ ما نتوقعهُ من "صفوةِ العقولِ"، ربما لأنَّ هؤلاءِ لم تومض في ضمائرهم روح "القسمة الوردية"، بعد أن ضيّعتهم نمطيةُ "المدن التي لا تبتسم إلا عندما يغطيها الثلج".

الكلُّ بحاجةٍ إلى رشقةٍ منَ الأفقِ.

27

حطَّ رحله هناكَ على بعد "رمية دبوس" من الخيمة الشمالية الشرقية، التي بنيت أساسًا لجمع الصوف صبيحةَ جزِّهِ. كان يوم الثلاثاء هو اليوم الخاص بجزِّ صوف الخرفان، بينما خصص يوم الخميس لجزِّ صوف الماعز. أما الإبل فيجز صوفها يوم الجمعةِ بعد الفجر حيث تقرأ عليها الآية الكريمة التي تؤكدُ عظمة خلق الإبلِ.

كان لكلِّ حيٍّ تقاليدهُ الخاصة في جزِّ الأصواف، وهي طقوسٌ تصل حدَّ المقدس الاجتماعي الرهيب الذي يحظرُ تجاوزهُ، وأذكر أنهم كانوا يطهرون السكاكين لهذا العمل من خلال تسخينها على النار.. ويقولون إنه "يجب تسخين السكينِ بين "مراح" وآخر"..

كانوا بعد عملية جزِّ الصوف يقومونَ بوضع السكاكينِ في حافظة يعلقونها في الشجرةِ لتكون قريبة عند الحاجة إليها.

لقد رأيناهُ يحدق نحو حافظة السكاكينِ؛ ثم ألقى بخطام جمله على الشجرة، كانت شجرةَ طلحٍ كبيرةً تكاد تحول بين الحي وبين الربوةِ التي تسدُّ الأفق. طالما كانت الشجرة معجزة معنوية ومادية.. وكم

بعثت في الإنسان من المشاعرِ.. والمشاعرُ تكون أصعبَ رصدا عندما تصدرُ في أغلبها عن اللاوعي.

عيون الاستطلاعِ مكحولةٌ بالشغفِ وبرغبة عارمة في "الفضول"، الذي أعتبره بمثابة أفضل "كنز" استثمرهُ الإنسانُ في مسيرتهِ منذُ جبلِ "الجُودي" وإلى اللحظة الراهنة التي يتربص فيها بالثقوب السوداء.. إذ لولا فضولهُ ما وصل الإنسان إلى ما وصل إليه من معرفة وتطور...

عيون الفضول ترصدُ الوافد الغريب وهو يجلسُ القرفصاء مُشرِعًا يديهِ نحو السماء، ربما يبتهل أو هو كذلك.. ثم رصدتهُ، ذاتُ العيون، وهو يستوي واقفا ويدور بالشجرةِ وعينه على الأرض! يبدو أنه رأى أثرًا لحية سامة أو لحيوان مفترسٍ، ربما يكون ثعلبا.. فمن المعروف في هذه المنطقة أنَّ "عقدة الطلحِ" هي المكان المفضل لتكاثر الثعالبِ.. ومن أخطَرِ الأشياء أن ينام الغريبُ قرب مخابئ صغار الثعالبِ، فسوف تعمدُ أولا إلى تأمين صغارها، ومن ثمَّ تستولي على زادهِ وتنقلهُ بعيدًا، ثم بعد ذلك قد تعودُ وتبدأ بهجومها على حيواناته التي تميزها بطريقة عصية على الفهم، وقد لا يسلمُ "الغريب" نفسهُ إن كانَ عديم الانتباهِ.

لقد حان للفضوليين التعرفُ على "الجار" الجديد. اتضح الآن أنهُ حطَّ راحلته بهذا المكان انتظارا لوصولِ قطيعهِ. واتضح أنهُ سيجزُّ صُوفَ ماشيته، حيثُ سأل عن خبيرة في نسج الخيام الوبرية، واستفسر عن تكلفةِ "عمل يدها".

صغار الفضوليين استفادوا منَ بقيةِ الضيافة الأولية.. بقية شربة باردة في شكوة حمراء يكاد عطرها يشق الخياشيمَ.. عطر الشكوة الحمراء يحددُ مستوى جودتها. وصل حاملو مواعين الشاي والفرن الملتهب جمرًا.. ثمة قدح السمن المحلي المغطى بحثوة كبيرة من القديدِ.. كأنَّ لسانًا رمليا يتمدد على سبخة ملح!

كانَ عطشانَ. تمرفقَ بعد الشرابِ، وأخرجَ غليونهُ، وسألَ عن اسم "النار" (الميسم) على الإبلِ، حيثُ تشابهَ عليهِ. أجيبَ. ومن اسم الميسمِ، تفوهَ بإطراءٍ نمطيٍّ عن الحيِّ أنسابًا وعلمًا وأيامًا وكرائمِ ومكارمَ... ثم طلبَ على الفور المبارزةَ الشعريةَ مع "العِيل"، وهو ما كانَ بموجاتٍ وموجات ارتدادية من بديعِ الشِّعرِ الحساني المجازيِّ، الموغلِ في الغنائية.

أيُّ زمنٍ ذاك. وأيُّ شعراء أولئكَ.. وما هذا التعلقُ الخُرافيُّ بالشعرِ!. بالطبع الشعر هو روح البشريةِ.

في "معارك" شعراء نواكشوط اليوم سجالاتٌ شعرية غاية في الإدهاش الشعريِّ (الغنائيِّ خاصةً).. لكن كما علَّقَ الشاعر د. محمد يحي ولد آب، ذات مناقشة، بقولهِ إن "هذه السجالات لا تتجاوز غالبا هجمات متبادلة من المديح بين المتساجلين". إذنْ.. غابَ الكثيرُ. وقد يأتي يومٌ يُجَزُّ فيهِ الصوفُ.

28

"إنَّ تكسرَ الأشجارِ يَجْـبُـرُ خاطرَ الحطَّاب!".

كان حريصا على أن يجمعَ نتفًا من الظلِّ في رسمتِه المشمسة، وإلى حدٍّ ما؛ لا يجدُ حرجًا في القيامِ بإزاحةِ بعض مكونات الرسم لتزدادَ مساحة الظلِّ ولو على حسابِ الأشكالِ في اللوحَة، إنه رسام مُتعصب جدًّا لفطريته، التي تملي عليه الدفعَ بروحِ الألوانِ إلى التَّبَرُّجِ خارجَ ضريحِ الفنِّ، والانبعاث من الفناء الخلفيِّ للرميمِ إلى مشهديةٍ نابضةٍ بسحرِ إعادة التشكُّلِ.

لا يهتم مطلقًا بحدودِ "الأبعاد المرئية"، فأبعادهُ أيًّا تجلت مجازيتُها هي أبعادٌ إبداعية، ولا تقبل فلسفته بأنْ يخضعَ لناموسِ إبصار، يرى الجميع يتسابقونَ إلى تبني تثبيتِ مظهرِه بمنْ فيهم الأعور والأحول و"النطيح"..

يقول إنَّ أشكالَ الأشياء قابلةٌ للرسمِ لا التصور، والانطباع الإبداعي يتجاوز "الفعلَ التقديري" إلى يقينِ الشكِّ بينَ تَمَظْهُرِ المَرئيِّ وحقيقتِهِ. تلك رؤية الرسام الذي يمنحُ رهبانيةَ الذوقِ ألف صَومعةٍ.

أدمنَ صاحبي الجلوس بشاطئ نهر "صنهاجة"، تتبدل ملامحهُ القمحيةُ عندما يمنحهُ الشاطئُ فخامة الصوتِ المُنبعثِ على هيئة رقرقةِ الخلدِ..

ينظرُ إلى تموجاتِ صفيحةِ الماء. أجمل التجاعيدِ على الأطلاقِ، وهي تتكسرُ في طياتِها بموسيقاها الأسطورية، تلك الموسيقى هي أبجديةُ الأرضِ لتهجئة الزمنِ حتى يتحدثَ بلسانٍ مائيٍّ مزبد... ثم ينظر إلى ورقةِ الرسم فيضيف أشياءَ؛ ويمسح أخرى، ويغيرُ شكلَ الأشياءِ لتذوب في دوامة مُتحورة غيرَ قابلةٍ للتصنيفِ المألوفِ..

وعندما يصل برسمِهِ ذروةَ مساواةِ جوهرِ الألوانِ بقشورها، يتوقفُ قليلًا ويترنمُ بمقطعٍ شِعْريٍّ.. ثم يعدد أسماءَ الفلاسفةِ والصعاليكِ من متصوفةِ القفرِ؛ الذين رمَّموا في الإنسانِ جمالياته المندثرة، ومنحوهُ روحَ الغولِ وترياقَ العنقاءِ وإضاءة لا تخفتُ من لهيبِ طَائرِ السَّمندرِ..

درب الرسامِ دربٌ بلا إشاراتِ توقف، دربٌ مرمَّمٌ بالأخضرِ، أوليسَ الرسامُ هو "سيدَ الخيالِ" و"ربَّ المُخَيلةِ"، وبين المعنيين أكثر من دلالة وإحالة.

في "العقل التشكيليِّ".. الهمة لا تضيقُ عن الذمةِ.

لا تحظى الألوانُ بمن يُلهمها تفجير طاقاتها ويستغلها في الأُفقِ المُنقضِّ.

بالعكس، أغلبُ التشكيليينِ يستغلها لإخفاء دمامتهِ، وإعفائهِ من تبعاتِ التمويهِ على فاقتهِ الإبداعيّةِ.

المسكين المنتبذ ريشتهُ يتسببُ بهزةٍّ عميقة في "وعْي اللاوعي". يعمد إلى كومةِ رملٍ ويخطُّ عليها أشكالًا، ويقولُ لي "أرأيت! لم أستخدم أي لونٍ. فكيف ترى اللوحة؟ أتحسها ملونةً!؟ أيخالجك شكٌّ في لحظتها الشرنقية!.. حين نقوم من هنا سيمتَصُّها النسيمُ صاعدًا بها إلى مَثوى لا يُضَامُ في معناهُ عقل".

حسنا! يا صاحبي لو.. يقاطعني "لوْ؛ تلكَ الإبليسية." ثم ينحني ويضيفُ أثر خطوٍ وراءَ أرجل الناقة في اللوحةِ.. يعيدُ تأملها، ويقول: "إنَّ الإنسانَ غير التشكيليّ هو إنسانٌ لا فاكهةَ في رُوْحِهِ. إنسانٌ أعمى ولكنْ لا عفةَ بصريةَ له".

صاحبي يرفض مُسَالمةَ الواقعِ.. يضغطُ ذاكرتهُ ليطفئَ ظمأ الانحناء والاستواء في صلواتِ عراجينِ النخلِ.. لقد جاءَ من بعيدٍ ليطارد ما هو أبعد.. أراهُ يكتبُ تهميشاً للوحَاتِهِ.. يرسم بالحروفِ عشبةَ الاغترابِ ومهلةَ الخفوتِ في الفحوى بين تضاريس النصِّ وأزمنةِ

اللون. يلقمُ شفاه النسيانِ حزمًا صوتية يابسةً، يحثو على جفنِ الغيمةِ "كحلًا أزرقَ".

هوامشهُ عباراتٌ قصيرةٌ.. كأنما يعظُ رسمتهُ بما تيَّسر من ألحانٍ.. ثمَّ يحرقها ليُطهرَ بدخانها بلدةً تهتزُّ تحتَ عمَائمِ المغبرينَ. يعتبرُ دخانَ حرائقِ اللوحاتِ أبلغ فعلًا من طَلاسِم الرقاةِ الذين يأكلونَ سمكَ السلمونِ مقليًّا في زيتِه.

قال لي وهو يعظُني بلغتهِ التشكيليةِ الفذَّة "الجرفُ نافذةٌ في بابِ الملجأ".

أذكرهُ بأنَّ "جاك دورسي" اختار الحمامةَ شعارًا لمملكتهِ إدراكًا منهُ أنَّهُ ما من فم حمامةٍ يضيق عن حملِ رسالة.. قد لا تكون بالضرورة غصنَ زيتون أو عرجون تمر.. إنَّ على أحدهم أن "يُعَـرْجِنَ" ثوبَهُ.

29

بينما تنتفضُ ظلالُ اليتوعِ مرقصةً نفسها؛ حملتْ إليه الرياحُ رائحةَ النبع.. متى ما تَنسَّمَ "بيبو" تلكَ الرائحةَ القادمةَ من بعيد، أدركَ أنَّ المطر نزلَ هناك غزيراً حتى فاض غديرُ "العالية"، وأصبحَ كمرآةٍ ضخمة تعكسُ صورا ملونة ومتحركة للأشخاصِ والدوابِ؛ وللسماء أيضًا وهي مثمرة بفجاجِ ذلك الأزرقِ اللامتناهي.

تصورَ المشهدَ في المكانِ الأنسبِ جغرافيا إلى قلبه.. يرى الوُرَّادَ يُحمِّلونَ حميرَهم بالقربِ الملآى، ويتعرفُ على "زِيْـمَهْ" تغسلِ ملابس والدها، وترشق بالطوبِ الأطفالَ اللاعبين في الطرف القَصيِّ من الغديرِ، ومنْ "تلِّ العاليةِ" يطِلُّ "الراكبُ"، الذي لا يُفوِّتُ اليوم الأول للغديرِ، لما فيهِ من طهر السماء، ومن التلِّ الشمالي الشرقيِّ ينحدرُ قطيع "بقر سيدي"، متخذًا وضعيةَ المسبحةِ الحمراءِ بينَ الأناملِ الصفراءِ.. وفي التخوم القريبةِ يَستعدُّ ركبانٌ وراجلونٌ لزيارةِ الغدير، فقد آذن موسم "ماء المنازل"، الاسم الذي يطلقونهُ على مياهِ الأمطارِ المنحدرةِ من التلال نحوَ السهولِ.

في مساء اليوم الأول للمطرِ ينتحي الرجالُ (الفتيان أو "عيل لكباح") نحو شجرةٍ تنتصفُ المنحدرَ، سيكون الدورُ على أحدهم للذبحِ والشواءِ، بينما يجهِّزُ آخر مواعينَ الشاي لسمر سيطول حتى تنقضَ خيوطُ الفجرِ غزل العتمة.. ثمَةَ "شيء في النفسِ" مؤجلٌ من جولة سابقة، ولا شكَّ أنَّ "الكَايد" سينتقمُ، فقبل أشهر سارت الأخبارُ والأشعارُ بهزيمته في "ظامت"، وسال لغطٌ كبيرٌ حول "فاجلة" إخفاقه في روي لم ينقذه منهُ الاحتكام إلى القاموس.

ليس "الكايد" باللَّاعبِ العادي، ولا بالشَّاعرِ الذَّلول. "الكايد" لم يمنعهُ عوره من صفةِ الرامي الذي لا يُخطئ، وكونهُ ولدَ أعرج لم يمنعهُ من أن يصبح "راقصا لا تشقُّ لهُ نغمة"، فأبدعَ رقصاتٍ تجاوز تأثيرها المألُوفَ عند ساكنة لا يُكلفها تشريع الممنوعاتِ وقلب الحقائق سوى تغيير أسمَائها أو صفاتها.. فلا يهزمُ إلا البطلَ، و"لا يسقطُ إلا النواش"، ولا تُطلَّقُ إلا الحسناءُ.. وربما تكون الحقيقة الوحيدة في "برزخ التلالِ" هي وصفهم للمجنون بالصلاح، فمهما بلغَ من المسِّ، فهو أصلحُ القومِ وأقلهم آثامًا، ثم إنه "لا يكتب عليه" اللهم إلا الطلاسم.

"اللِّينُ لا يكسرُ". و"الكايد" رجلٌ موهوب في جبر الخواطرِ وفتقها معا.. يقال إنهُ إذا قرَّر الانتقام تبصَّر بعظامِ غريمه.. قبل عامين من هذه الجلسةِ هزمَ ثلاثة لاعبينَ بنقل واحدة.. والعارف بـ"ظامت"، التي أطلق عليها الإعلام الدولي "شطرنج الصحراء"، يدركُ أنها لعبة لا يعدم السباح فيها "سترةِ نجاة".

"الكائد" يخوض "صراع اثنين في واحد".. معركة كسر عظم في "ظامت" والردِّ على "القصفِ الشعري" من خصمهِ اللدودِ. خصم يمثل حالة خاصة. رجل ستيني قادم من تخومِ "آوسرد" بحثا عمَّن يهزمه في أيِّ لعبة ذهنية، ولو تلك التي يراها أوَّلَ مرة. على "الكايد" ابتكار الحلول. والذود عن الحريم، فلا أقلَّ من ذلكَ.. وقد أشيع أنهُ سيهاجر إن هُزمَ، لأنَّ رصيده من الحياءِ لن يُمكنه من البقاء بشرًا في معطنِ الذواتِ.

البقاءُ في البيداءِ ليسَ دائما للأصلح. يُعبِّر عن ذلك إبراهيم الأندلسي بقولهِ إنَّ الزهور تعيش قليلًا بينما تعمرُ الأشواكُ.

لم يعد "بيبو" قادرًا على تحمُّلِ الانتظار. ذلك الثقل الخارج على كل قياساتِ الكتلِ.. ألقمَ الظلالَ المتراقصةَ حثوةَ رملٍ، وأسنفَ ساقيه للريح... أرادَ أن يشهدَ بنفسهِ "المعركة" على مرمى نظر من غدير "العالية"، الذي يُقَالُ إنه نشأ عندما بصقت في المكانِ امرأة صالحة تواتر الرواةُ أنها كانت حسناء.. وبالطبعِ كل امرأة صالحة هي امرأة حسناء.

جلسَ قبالة "الكائد"، تأملَهُ بدقة. حدَّقَ في العيدانِ أمَامَهُ.. وأشَارَ تَرْمِيْزًا إلى "معجم البلدانِ".

30

في البحث عن قصيدَة كونية جديدة؛ يتضح أن الكلَّ في مأزق. نعم. وربما أيضا يستمرُّ "الزاحفون" داخلَ هذا المأزق في سدِّ كل الفجوات المحتملة لأي ضوء في نهاية نفقه الأكمهِ.

في تاريخ الكون؛ ومنذ أول شعر قيل على لسانِ امرأةٍ، وهي كاهنة من بلاد "الهلال الخضيبِ"، إلى اليوم الذي تستوحش فيه العدسة على الأبجدية، مرَّ الشعرُ بمحطات حاسمةٍ، ليس بتطور فنياته فحسب، بل في تأثيره غير المتناهي في الفكر البشري مشاعرَ وسُلوكًا وعلمًا نظريا وتطبيقيا؛ بما فيهِ التطور "الآلاتي"، حتى تأكدَ، بفضلِ الشعر مُحفِّزِ السموِّ والحلمِ، أنَّ الحضارة التي بدأت بكلمةٍ، لا يبدو في أي مخيال، ورغمَ المضاعفةِ الخرافية لعددِ الآلاتِ في الثانية الواحدة، أنَّ إناءً واحداً سيفيضُ من عَبرَاتِها الفخْمَةِ.

إنَّ التجارب الشعريةَ في "الحَضارات الرائدَةِ والقَائدَة" قد "تتشابه" أو "تُـشَـبَّهُ" في فرضياتِها الأفقيةِ، لكنها عموديا قد تُـشْبِهُ قطرات

الندى التي لا تُعمَّرُ أكثر من الزمنِ الذي تستغرقهُ في مسافة إقلاعها! ولا أظنُّ النقدَ قادرًا على المغامرةِ بمساءلةِ العمر الافتراضي للشعر، فهو عمرٌ خُرافيٌّ في "نسبيته".

مع ذلك لا يفوتُ البعضُ إغواء الفضولِ بالنبشِ في برزخ شهادات الوفيات التي يصدرها "نُقادُ القطعة". وهم من هم في النظرِ إلى المساحةِ من زاويةِ "فلسيتها" أو "تدنيرها".

الشعر في بيئتهِ المُؤسسة (الآسيوية)، ظلَّ وفيا لخرائطهِ في اللغةِ والإيقاع، ولكن من غير الصحيح مطلقا الزعم بأنهُ مجردُ "هالة روحيّةٍ حالمةٍ". "الشعرُ شرقيٌّ". نعم. لأنَّ "الامتدادات" كلها شرقية، ليس في الشعر وحده، بل في "أصولِ كل شيء" يمتُّ بصلةٍ إلى المعرفةِ البشريةِ، صحيح أن البحر قد يصبح أكبر من روافدهِ ولكنه سيظل منتميا إليها ولو انْبَتَرَ المَرْئيُّ من ذلك الانتماء.

في عزِّ موسم "صقيع التيهِ" و"نضوجه"، الذي تعيشهُ التجربةِ الشعرية المعاصرة لا تنذر الاحتمالاتُ بالأسوأ بعد. فالمرحلةُ الحاليةُ هي مرحلة "تدوير المروحة الثابتةِ". المروحة تجلب الرياح لكنها لا تأتي بماء المزنِ. ما من شيء أجملَ من ألوانِ الدخانِ والحرائق بيْدَ أن الأولى لن تمنح ما تعطيهِ السحب، والثانية لن تسرقَ الخلدَ من إشراقةِ الشَّمس.

عندما يتعلق الأمرُ بتقويم مخاطرِ انعدامِ "انجراف كوني" نحو ارتيادِ آفاق تجارب شعرية غير مسبوقة، فلا تستمعوا إلى أي من أولئك النقاد الذين يقولون لكم "إنَّ زمن الشعر ولى" ولا أولئك الذين يرُدُّون بقولهم "إن الشِّعر بخير". العفافُ لا يستقيمُ بينَ كَفَّتَيْ ميزانِ الغشّ!

الشِّعرُ ليسَ بخيرٍ مُطلقا، وزمنُ الشِّعر لا يُولِّي أبدًا. الشعر هو الذي يرسلُ الزمنَ والناس معا إلى حيث يريدُ. حتى والشعرُ ليسَ على ما يُـرام فهو "الطائر المحكي" وغيرهُ شبح ينشر نعيب البومِ بينَ ضحايا القبح.

ذاتَ يوم تكاسلَ الذين صعدوا جبال "الهملايا"، ومعناها "دار الثلج"، معتقدين أنْ لا قمة فوق ذلك تَـشحذُ همتهم.. بينما لم يغفر مريدو الخيالِ لوصمةِ "نقطة النهاية". لقد اعتبروا كل ما سبقَ "جملة اعتراضية"، عزفَ الصوتُ الجبليُّ بداخلهم وسرعان ما كانتِ المركباتُ الفضائيةُ عتبةَ السُّلمِ نحو ما يُسمح لعباد الله ببلوغهِ.

إن أنكثَ الآراءِ النقدية، ذلك الذي ينشد حلَ الوصفات السحريةِ في "الشمال"، برغم أنَّ "ذلك الشمال"، وبسبب الهجرات

(اللجوئية)، تحولَ إلى ما يشبهُ وصف عمرو بن قميئة لوِرْدِه (عليهِ خليطٌ مِنْ قطاً وحَمَامِ).

يحتاج الشعرُ اليوم إلى ذلك العبقريِّ الذي يتخلصُ من وصْمةِ "نقطة النهاية" نحو "فَدْوَنَة" روحِ النصِّ قبلَ مَسَاحته. إيه. نعم. ذلكَ الصعلوك، مُوقع الخطوِ، هو القادرُ على زمْزَمَة الطريقَ أمام هجرةٍ جماعيةٍ معاكسة، وليس ولادة بوصلية برأسٍ متجهٍ دائمًا إلى الشمالِ.

31

"الغُصنُ كل ما اخضرَّ وأثَمَرَ زاد لينًا وانحناء". مثل موريتاني.

عزيزي "ديبه".. يبدأ الحلم في غفوة إنسان أو رسمة فنان، ليَسَع كل بني المقلة.

حتى الحلم الذي يأتي في "رقدة أبكم" لم يعد محكومًا بالخرَسِ! مع تخطِّي الإفصاح معيارَ "النطق"، بالتجلي عبر أكثر من وسيلة تعبير، إنما تصغرُ الأحلام وتكبرُ برائيها، وتحيا أو تموتُ به ومن دونه أيضًا. والحلم الصغيرُ، أو "الحلم الفقير" بتعبير أدقَّ، هو الذي يولد ليموتَ ويتلاشى دون أدنى تأثير لأنَّ صاحبهُ لا يملكُ إرادةً ولا تصورا للسبل الكفيلة بتحقيقِ حُلمهِ.

لا تنس يا "ديبه" أنَّ أضغاثَ الأحلامِ تحشو رؤوسًا كثيرةً، ما يلغي أي قيمة لحمولةِ الجماجم الفارغةِ، التي لا يزهرُ فيها إلا الاندثار، الاضمحلال والتلاشي.

وأنا يا "ديبه" لا أرى حلمًا يولدُ خارج الإرادةِ إلا "حُلمًا مَيْتًا"، حتى وإن استُظْهِرَ بالعكسِ؛ فسيبدو حلمًا مسخًا، مهما تلونَّ في مُخيلَةِ صاحبهِ، فالحلم الذي لا تكون الإرادة قابِلَتَهُ لن يضيفَ إلا مزيدًا من المسافةِ إلى عبء الوراء، وهكذا فلن يستوي المتلبسون بالأحلامِ المكتفينَ بوهْمِها، والقادحينَ أذهانهم لتجد سبيلًا طلقًا نحو تحقيق ما يحلمونَ بهِ.

يا "ديبه".. كم من أحلامٍ وصفت بالتعجيزيةِ، ثمَّ تطلبت جهدًا بسيطاً لتصبحَ واقعًا، بينما بدت أحلام أخرى سهلة التحقق، وتبينَ أنها انعكاس لوجهِ المستحيل في صفيحة وهمِ أحدٍ ما.

لا شك أن الأحلام هي ذخيره الإبداع: تقدمًا وتطورًا وتحضرًا وَرُقيًّا..

غير أنها قد تكونُ آلية سراب مضللة، وحاجزَ عرقلة لصاحبها ما لم يملك أدوات تنفيذها، بل قد تسبب تراجع مستواه في "اللاحُلُمِ"! وتزيدَ وتيرةَ أدائهِ خللا، إن لم تُخْرِجْه نحوَ الانزواءِ والخذلانِ..

يا "ديبه".. غالبا ما يُؤدي ثقلُ الأحلامِ الكبيرةِ على عاتق الهممِ الضعيفةِ إلى انكسار أكبر أو إلى فتقٍ أعمق بين العقل والوهم.. وما من خللٍ أكبر من "تضخم الأنا"، تلك "الأنا البالونيةِ"، التي لا ترحم في علوها المجازي وهبوطِها الساحقِ.

يا "ديبه".. لا بدَّ أن تُؤثرَ الأحلامُ فيكَ إيجابا أو عكسَهُ، فإما أنْ ترفعَك نحوَ العلو الحقيقي بالإبداعِ، وإما أن تُدليكَ في قارورةِ النكوصِ والوهم السلبي، حيث الغرقُ بمعناه الأصلي الذي لا يتورطُ في المجازِ.

يا "ديبه".. إن الحديث في ظلال اليوم عن الأحلام وتأثيرها في مسيرة المرء، ليس مَبْحثا إرشاديا يتوخى أن يلعب لكَ دور المعلم والطبيب النفسي والحكيم والفيلسوف المستكشف والمفكرِ المستشرف. إطلاقًا.

الأمر أقربُ من ذلك بكثير.

فهناك من يعتقدُ أنه حققَ حلمَهُ وهو لا يعي حقيقة وقوعهِ بين جَفْني كابوس.

يحدث ذلك لبعض "الشعراء الريفيين"، الذين "لا يعرفون حقيقةَ نصوصِهم" ولا يقتربون من خويصتها.. أولئك الذين يُخفتونَ الحقيقةَ ضجيجًا، ويستمطرونَ الإعجابَ والتنويهاتِ لمجرد أن

أحدهم كتبَ "شطرا مكرورا"، توهمَ أنه أوصلَهُ إلى "ما وراء النَّصِّ". أمثالُ هؤلاء مرضى الأحلام. ولا شكَّ أن ضحايا الأحلام هم أسوأ البشرِ حظًّا.

إنك تعرفهم من ريشهم المنفوشِ، وتعرف قصائدهم من جلبتها الذبابية داخلَ الكأسِ، ومن قماءتها اللغوية وعوزها في الخيال.

تلك النصوصُ التي لا تُـنضحُ بغير ما يُسَهِّـلُ خروجَها من التاريخِ، هي حلم وفخر أولئك الشعراء "حملة الأحلامِ الفقيرةِ"! الشعراء أصحاب القصائد المصابة بداءِ السلِّ. قلْ لهم: إن السعالَ لا يتحولُ لحنًا أبداً. كما أن البثور الجلدية لن تتحول إلى شفقٍ آسرِ الألوانِ.

يا "ديبه".. أتساءلُ دائماً من يَخْفِـرُ حلمًا كبيرًا لعلَّ ذمةَ العوامِ لا تظلُّ مستباحةً من "المرائي" المتباهي بكونه يُميِّـزُ بين الفاعلِ والمستفعلِ؟!

32

مهما تقرحت الأجفانُ فلن تعجزَ عن أجملِ الأحلامِ.

وهو قد يعثرُ على حلمهِ ولو في إغفاءةِ منتصف الطريق، فقد نامَ غربَ الشجرةِ يُهدْهدُهُ نسيم الصباح، قبلَ أن يستيقظ على لفح القيظِ يشوي الهواءَ في رابعةَ النهارِ.

في فجرِ الصحراءِ، قرب واحةِ "المشتى" يسترسلُ النسيمُ المشبع برائحة اليتوع والتيدوم والطلح والنخل والأراك و"التمات" والسدر والبشامِ و"العلندا".. لكن في عزِّ الزوالِ تكادُ رئةُ الزمنِ تمسحُ لحظةَ يبدأ القيظُ حتى يتحولَ بريقًا في لوحةَ تَنِزُّ حبرًا بأكثر من ريشة وأكثر من لونٍ وأكثر من "لا لون".

في شواظ القيظ تتحولُ الحفرُ الداكنةُ إلى مرايا تترقرقُ بالسرابِ في ذلك "الزمانِ / المكانِ" الموسومينِ دومًا بخُطىً تتوردُ في وشم الخلاءِ!

شيء ما يهدهدُ أعصاب شاعر البيدِ وهو على راحلته. كل شيء وارد. واردٌ أن تطاردك "أفعى البجوان"، واردٌ أن تبتلعك الآبار المطمورة، الرابضة تحت قشرة الأرضِ، فتلتقمكَ؛ أنتَ والجملَ والراحلةَ. ولا يعرف أحدٌ ماذا يحدث بعد ذلك. الأمر صعبُ التحملِ حتى في التصور على الأقلِّ بالنسبة لمن وجد نفسه ذات يوم في مشهد مشابه.

واردٌ أيضًا أن يغدرَ بكَ حيوانٌ متوحشٌ.. دائمًا يحذروننا من ذلك الزئير الذي نسمعهُ، إنه ليس لأسد بحسب ما يزعمون، ربما لنمرٍ أو لجارحٍ آخر. ناس الصحراء يميزونَ الصوتَ المخلبيَّ من سواه.. الصوتُ المعزوفُ من بين الأنياب المفترسة لا يشبه أي صوت آخر، كالذي تصدرهُ المعشباتُ، أبدا. وهو يعرفَ أنَّ بعضَ المعشبات أشدّ خطرًا حين تهاجمُ، كالثور الوحشي والجملِ الغاضبِ. عندما يتحولُ الجملُ إلى مفترسٍ غالبًا لا يأكلُ إلا لحم البشر.

في تلك البيداء، بيداء البيداء، قفر القفارِ، وخلاء الخلاء، الموت السريع محتَّم على كلِّ المخلوقاتِ.. مع ذلكَ يزدادُ الإصرار على الحياةِ.. إصرار نبتة تنبثق من لثة الرملِ الحار، إصرارُ حفر على الاحتفاظِ ببقيةِ ظلٍّ حتى يتمكن العابر من قبضة تراب تقيهِ الرمضاء للحظاتٍ.

هناك ما لا يعرفهُ أبدا.. متى يعثرُ على ضالته أو يرى بشرًا نهارا، أو يلمع له، ولو من بعيدٍ، ضوء نار ولو لم تكن "نار المحرق".. في الظلمةِ الظلماءِ، العتمةِ الفخمةِ، يصعبُ على الإنسان إلا أن يُحس

بأنَّ رائحة دخانِ الحطبِ أشهى ملايين المرات من بخور ليلى وهند ودعد وبثينة وجميلة وأروى وسلمى، وكل اللواتي نوَّرْنَ الكحل أمراً، فعطَّرْنَ الشعر ذكرا.

عندما يمتطي الفرح رائحة الدخان تولدُ لغة ومشاعر أخرى لعالمٍ آخر لا تعرفه القرى التي تستفتح بذمةِ فلس.

غريباً كانَ في عتمة استكملتِ الإظلامَ.. سمع ذلك الصوت، وكان صوتًا قريبا إلى حدٍّ رهيب، كانَ مُدهشا ومفزعًا.. ويصعب أن يخطرَ بباله. لقد أحسَّ بالسهم الناريِّ يمرُّ من جسرِ الهواء بين كَتفه وأذنه، كادَ يختنق. إنه على مسافة لا تحتملُ فرصة المراجعة. مسافة عازلة بنفوذ ورقة توت. أمرٌ مرعبٌ في عتمةٍ لا تنقصُ النجومُ من أطرافها.. ما من شيء يتحركُ، ولا صوت يسمع لحيوانٍ ولا دبيبَ خشاش. فماذا يحدث! إنه لا يعرفُ. ليس من فعل جانٍّ، فالجن لا يطلقونَ التحذيرات! هل هناك من يترصدهُ، ولماذا يترصده! قد يكونُ اشتبه على صاحبَ ثأر قديمٍ، أو دخل منطقة رماية، ولكن من الرامي في هذه العتمةِ الكارثة؟

ما الذي يجري.. يبتهل فحسبُ كي لا يسمع دويًّا آخر.. ثمَّ استعادَ عقله عندما أخذت تمطرُ فجأة. فيا لأيام "تميمِ الرحلِ"، الذي لا يذكرُ ولو في الحكَايةِ. كان على الشاعر أن يجرحَ ذمَةَ الحكاية لكي تَـنزفَ. آثرَ أن يَغفوَ وقد اتخذ المطرُ جسدهُ وترًا يعزفُ عليهِ.

33

حملتُ همومك فتجاهلت دمعي.. وهل يعبأ أحدٌ بدموع حبل الغسيلِ!

لم أتوقع يومًا أن أصبحَ رجلًا بحريًا. البحرُ بالنسبة لي كانَ جزءًا من الأسطورة، عندما تعرفت به أولَ مرة في ضواحي "روصو"، عرفتُ أنه هو الأسطورة، بل إنها ليست إلا جزءًا منهُ، حتى إنها تمثلُ الجزء الأضعف فيه. البحر نظيرُ الأفق.. سديمٌ لا متناهٍ من الموج الهادرِ الآسِر على مرِّ اللحنِ.

لقد انتبهتُ إلى أسرارِ المَاءِ أولَ مرة عندما رأيتُ راعيةَ غنم تبكي، سأعرفُ لاحقا أنَّها امرأة تغسلُ بالدمْعِ خطى زوجها، الذي اختطفَـتْهُ أخواتُ "كان".

كانت تجلسُ وحيدةً على اللسانِ الرملي غربي "النطفية" عندما خاتلتها ببراعة ثعلبية حتى حاذيْتُ كتفها. في البداية غمغمتْ مستغربة وجودي، فسألتها "لماذا تبكينَ؟"، وكما يشقُّ البرقُ غيمة المطر أرسلت ابتسامتها من بين دموعها محاولة الانتفاضَ على ذاتها؛ على الحطام الذي تنبأتْ بأنيِّ سأعانيهِ يوما ما. ثمَّ أخذت تجاملني بعباراتِ تفخيم نغمتها بحنجرة أطهرَ من ماءِ عينيها. وزادت قراءتها لحظِّي.. "حين تكبر ستُصبحُ بحارًا ورجلًا ثريا، ولن تعاني قدماكَ منَ الشوك، ولن تتشقق يداكَ شعثًا، وستصل سُفُنُكَ حدودَ السند والهندِ".. لعلَّها تستظهرُ مخاوفي من ضحيةٍ مكيدةٍ، وبالغت كثيرًا عندما توقعت أنْ تتطهرَ قضبانُ السجنِ بإيواء براءتي كتميمِ دارٍ آخر.. لم تكن لتَعلمَ أنَّ التاريخَ أكثر من يتسامح إزاءَ الخطيئات؛ لكنَّ البشرَ دائمًا يُكررونَ أخطاءَهم، السجنُ يربأُ بقضبانه أن تتشرفَ ببحَّار فارغ، والبحرُ لا يخطئ مطلقا في التمييز بين رُضَّعِ التوابيتِ.. ولا تتشابهُ عليه رائحتهم، كما تتشابهُ على الأجدعِ نفثاتُ قوارير العطر وأنفاس مخمور.

في كل مرة؛ أقرأ في حبل الغسيلِ مَظلوميةَ تلك المرأة. الراعية النبيلة التي تعيد إلى رائيها بَصَرًا يانعاً كالسُّنبلاتِ بين شِفَاهِ البقرِ الذَّلولِ.. كلُّ ناقص تُكملهُ روحُها العذبةُ، تلك الروح التي سماها شيخ حينا

بـ"الخطَّافِ". وتلك إحدى عباراتهِ التي لم نجد لها تفسيرًا، ولا نجرؤ على سؤالِهِ "خارج النصِّ".

قبل أن أذهب إلى البحرِ؛ راجعتُ حكاياتِ أهلِ الجبلِ.. المُعلم القادمُ من الشمالِ حدثني عن "صخرة سيزيف". لم أعبأْ بقصتها كثيرًا، كانت صخرةُ سيزيف على ظهرهِ وكانت صخرتي على بطني.. طفلٌ منفيٌّ يمدحُ ملحَ القِرى لأهلِ القُرى.

تعرفت على البحر مرة ثانية حين تمشيتُ ذاتَ فجرٍ بغداديٍّ على شاطئ دجلة. أخبرني روائي "جبل النار.. جبل الثلج"، أنَّ ماء دجلة يتنفلُ عند الغروبِ بدموعِ المحبينَ، وأذكر أن شاعرًا مصريا ردَّ عليهِ بأنَّ النيلَ يتسحرُ بصوتِ العصافير.

على نهر بَرَدى؛ كان سهلا تقليد الياسمينِ وغفواتـهِ قبل ميلادِ دمشق. لم أمنح بردى ماءً دمعاً. الماء يبدأ بزمزمٍ وينتهي بما نَـدَّتْ به شفاهُ العامريةِ وهي تُـخاطرُ خطوَها في ممشى الليل الذي لا يمشي بهدوءٍ أبداً.

ما بين النيل ودجلة والفراتِ وبردى و"نهر صنهاجة".. وبقية الأنهارِ المعلقةِ على أهدابِ الروحِ؛ تحتَّم على أشرعة القلبِ إرواءُ البداياتِ الشَّمعيةِ في قدْحِ اللحظةِ بسُـمْرتها.

قد يبدأ التجميلُ بالتشويهِ، والكمال بالنقصانِ.. الفلاحُ يملأ تربةَ الحقلِ جُروحًا، لتتحول خضراء لا تبغي بمائها ووجهها من الحسنِ شيئا.

سألتهم وأنا أتأملُ كلَّ هذا الماءِ المنساب نحو فوهةِ الشفقِ "لماذا لا يكون لنا بحر في "أرضنا" بدلَ تلك الآبار التي نعطيها من عرقنا أكثرَ مما تعطينا من مائها، وعندما نرتادها نسفك عندها من الدماء أكثر مما نسفحُ من الدلاء؟!".

أهل البحرِ لا يجيبونَ أهل البرِّ بمظنة الانطفاء الشمسي، والإشراقِ المَغيــبيِّ.

لأنِّي لم أتوقع يومًا أن أصبحَ ملَّاحًا؛ فقد حملتُ إلى البحرِ ظليِّ و لم يكن بي ربل.

34

لقد بدأ "صراع الحضاراتِ" بشكل مبكر على هذهِ "المعمورة"؛ نلمس أول معالجة فكرية لهذا لإشكال من خلال "الثقة التاريخية" التي منحها الإمبراطور الأكدي "سرجون العظيم" لابنته "إنهيدوانا" حين كلفها بالتغلب على الخلافاتِ العقائدية بين الحضارتين "الأكادية" و"السومرية".

ولأجل هذا الهدفِ، باشرت "الابنة البارة" معالجة "مخاطر الصراع" من خلال الثقافة، وتحديدًا من خلال الشعر، حيث عمدت إلى دمج أساطير الحضارتين في قصائدها لتصبح أول شاعرة ومؤلفة عرفها العالم، بيْدَ أن هدفها كان توحيد الدياناتِ (السائدة وقتها) لتأمين الاستقرار لحكمِ والدها الإمبراطور.

إن أول معالجة فكرية لصِراع الحضاراتِ كانت على يد امرأة.

لا أعرف إن كان ذلكَ يَـجبُّ الفعل الذي سبب خروجنا من الجنةِ.. من متاعب قابيل وهابيل إلى الدرس الذي قدمه أول حيوان معلم في التاريخ. سوف نَسِمُ؛ نحن البشر؛ كلَّ صوتٍ لا يعجبنا بأنه "نعــيبٌ". إنه عجزنا أن نجدولَ أحلامنا على إيقاعٍ غيرِ تشهيريٍّ.. بيد أنَّ الشعر سيغيِّرُ مَجْرى نومنا وأحلامنا معًا.

لقد انتهت الاحتفالات (الأكادية) بولادةِ القمر كلَّ شهر، وأصبح العالم يحتفل بـ"ديانات كوكبية" أخرى، تتجسد اليوم في وثنِ البحث عن حياة على كوكب آخر.. إنهُ "البعد الفلكي" في تفكير الإنسان "الطريد"، ذلك الإنسان الذي لم يخفف من "ثِـقَـلِ ظِله" إلا كونهُ أصبحَ إنسانًا شاعرًا؛ أرملَ الدمع؛ أوْرَدَ الجرح.

إنَّ "الإصلاح الفكري" مرتبط بارتفاعِ منسوب الشعر في حياةِ الناسِ.. فأين من ذلكَ من يعارض الإصلاح الشعري!؟ ومن ينفي احتمال تطوره! ومن يعلنُ موته ويُبـرْزِخُهُ؟ أيفعلُ ذلك عاقلٌ باسم الترياقِ الـمُزهِرِ لعَالمِ الفناءِ!..

إن مساحة الجرح لا تحدد مساحة النزيفِ..

نقاد الشعرِ التقليديون مستسلمون لكلِّ هذا "التطور الأدواتي" الكاسح، بل هم أوائل مُدْمنيهِ، بينما تراهم يروِّعونَ خلقَ الله من مَخاطرِ التطور الفكري، الذي يستحيل أن يكون نافعًا من دونِ

التجديد الشعري، والذي يستحيل هو الآخر من دون العودةِ إلى مختبر الإلهام الأنظفِ؛ أي الصحراء بما تَحملُ وبما تَتَحمَّلُ.

لولا الصحراء ما ولد الشعر؛ أظُنُّ أن الشعر لم يبدأ من المدينةِ، لأنها ذات رئة دائمةِ التلوثِ.. ثمَّ إنَّها وزعت مَساراتِ البشرِ عندما فصلت الطرقَ بين شوارعَ وأرصفةٍ حتى لا تستوي الأقدامُ ولو في وقع الخطى.. بينما بقيت الصحراء الموزع الأول للنسيمِ والقَمرِ.

المرأة؛ التي كانت أول من قرضَ الشعر في تاريخ البشرية، سواء كانت كاهنة معبد، أو مدبلجة وصايا عن مملكة، أو حتى ربة بيت تنتظرُ عودة السيدِ مُحمَّلا بالخبزِ والزيتِ.. كانت بكل تأكيد امرأة صحراوية.. نعم. إما أنها ولدت في الهواءِ الطلق قبل تلك الألقابِ، أو أنَّها تلبست روح الصحراء من رحلات الصيدِ وخلوات الإلهامِ، التي تشعرُ "كل ذي عقلٍ" أنَّ قوة الفراغ الكبيرة هي قوةٌ كيديةٌ، فمادة الفراغ أقوى ملايين المراتِ من مادة تذخيره.

وسيعلمُ السَّاعونَ إلى "تَـقَرِّي الشِّعر" بينَ "زلَّاجَاتِه" أنَّهُ كائنٌ أكثر حساسية من "مَرْسَم تصورات". فالشعر مُحفِّز عقليّ قبل أن يكُونَ "وليمةَ إيقَاع" لمن تصامت بهِ خواطِرهُ ومشاعِرهُ.

ما من مثقفٍ أصيلٍ ينثرُ كنانتهَ بسلامٍ.. ومتى كانَ الدجاج يـفرحُ بالسُّنْعُبَةِ؟

لكن على ذلك المثقف (المنشود) أن يفهمَ قليلًا، ويستوعبَ أنَّ "الشَّرَكَ رأسمال الصيادِ"، وأنّ مادة الشرك قد تكون من مادة الطريدةِ، وأنَّ أي بداية غير لولبية قد لا تكون محكمة في فِقْه البراغي..

ثم "أزيدهُ حرفًا".. وهو أنَّ على من يُغيِّبُـهُ سفر النَّـغمِ أن "يتبجد" الـحَضَارَاتِ من خلالِ أشعَارِها.

يَوَدُّ الرائِي أن يُـثَعْبِـنَ الزجاجاتِ الفارِغَةَ؛ فعلى تخوم الحرفِ يتحفزُ القمقمُ بِلِسَانِهِ المُلوثِ بالصخبِ!

35

الرجلُ المختصُّ في ترتيبِ مساراتِ رحلةِ النَّغمِ رجلٌ لا يبارى في مدح الريح.

قبل "هسيود"؛ كان الناسُ يمدحونَ العسلَ والزنجبيلَ والبلحَ والنخيلَ والطرفَ الكحيلَ والخدَّ الأسيلَ ولثغةَ الفجْرِ والأصيلَ؛ كانوا يُدوِّخُونَ البحرَ والسفنَ والشواطِئَ والأرخبيلَ... ولا يوجدُ في قصيدةِ "الأعمال والأيام" ما يشيرُ بالدلالة الزجاجيةِ إلى أنهم هجّروا حصاة رملٍ واحدةً إلى تفاحةِ البرِّ.. كانوا يُوزعونَ الشَّظايا في الـمرايا؛ كانوا مثلَ الذينَ من قبلهم لا يستفتحُون أشياءَ بأشياءَ ولا يُحملون النداءَ بأسماءَ ملحقةٍ بالصبايا؛ بينما "يُطنبُونَ" بضعًا وتسعينَ خيمةً في الوصايا..

كانَ الرجلُ من بيْن هؤلاءِ يشحن "إلياذات" بكاملها في جملةٍ تَختصر زبدةَ المعنى؛ لقد اغترفَ "هسيود" حظهُ من رشقةِ المنفى من

"كيمي" إلى قرية "أسكري" في "البر الشرقيِّ" لآسيا المُستصغرة.. كانَ رجلًا رحَّالة يَحفظُ أسماءَ الأحياءِ وينشدُ ألقَابَ الخيولِ، ويتدرج بشكلٍ تلقائيٍّ مع مقاماتِه في بحةِ الأجفانِ، كانَ يأسِرُ حمولةَ الظلِّ على مُتسوِّري التيدوم الذينَ يعرفهم من اتجاه تسريحاتِ شعرهم.

إنما لا يعبأ المنذرُ بأربَاعِ الأدلَّة غيرِ القطعية، فربما ارتهنَ ذاتهُ تحتَ كمونِ بذرةٍ لسنامِ الشَّكِّ في خُطًى تتأبطُ البِطاحَ؛ ولربما استعطفَ الأيكَ المندرسَ في ذاكرتِه.. وقد يُحرِّرُ قائظَ الريقِ حينَ يُبّددُ الأفُولُ ما ذرأتْ عينانِ مُزوَرَّتانِ بالـهمْسِ مدْحًا... فالمجدُ لروابي تتمردُ في عُرْيِها الصيفيِّ.. ثمَّ تعودُ ذَلُولًا ساعةَ تلتحفُ العشبَ حينًا من الدهرِ تؤولُ فيهِ غيبة المطرِ إلى الربوتين التوأمينِ.

مداح الريح؛ كان يرتحلُ في المعنى؛ وكانَت البطاح لتَـجرؤ على طقسٍ لا يُـحنِّطُ بصيرةَ مدَّاحِها وأمْدَاحِها... هي ذات الربى التي تتحصن فيها سبحةُ الحفرِ؛ التي تحتضنُ بقيةَ الظلِّ عندما يرحل الزوال غربًا على ميسرة من بعد نظر..

يرشدُ الـمِزْماريُّ الظلَّ الـخــُلاسيَّ لتنفتحَ شفتا بابي بكلِّ ألوانِ الطميِ والضبابِ.. و"حيث متى" التي تتراقصُ في "تعدياتها"، فهنالكَ لا يكون بدعةً يومٌ يتقاسَمهُ لحافُ الشتاء ونصيفُ النساء..

يسألني صديقي الرجلُ الـمختصُّ بمدح الريح وتبليغِ وشاياتها.. فأنصحهُ برقيةِ الطقسِ.. كلُّ برقٍ يخفُتُ تحت هدبٍ هو راويةُ الميتمة. وهذا الحرفُ ليس ناطقًا باسم المتحرك الساكنِ.. فالتفعيلاتُ سنابلُ هذا المغردِ المحارب المهزوم تلقائيا أمام أي تحالف طرفهُ الكحلُ.

يا صديقي لا يستطيعُ الشاعر أن يهجر قصيدته، وأكثر ما يمكن أن يفعل في هذا الربعِ هو أن يطلسمَ المسافَةَ بينها وبين شغافِ قلبهِ.

القصيدة أنثى حتى في تَخيُّلها وعندما تحثو على شفتيكَ من حشاشة أظافرها فاعلمْ أنها لا تطيب لأحد عن نبرة واحدة من إيقاعِها.. القصيدةُ ليست امرأة مطلقة تقبل العودة بنصف اعتذار.. إنها هي التي تسترجع قنطارها كاملاً.

يأتي المساءُ خافتًا في حديث النبرة للنبرة، والصِّوان للصِّوانِ.. كل مساء يتدثر على كتف متعدد الضفائر.. إنما يفعل ذلك لأنَّ أحدًا ما لا تهمه الصور المتثائبة ذات الأوزارِ الصاخبةِ في ذمةِ الريشة..

أيُّها المزمارُ.. أي شيء غرسكَ في دمي بهذا العمقِ الأحفوريِّ، لتكونَ إرثًا على فطرةِ أثر؟ أيّ ياءاتك التي بَـحـّـَتْ بالنِّداءِ فوقَ مشبكِ إزارِ القصيدةِ قبلَ الثلثِ المستباحِ من زخَّةِ القافيةِ.

الخببُ العالي في أنفاس مزماري يحفرُ تعويذتهُ في شرنقةٍ آئبَةٍ نحوَ "التَّخَلْدُن".. يعبثُ بالعبثِ، يرتاح عَنْقَائيا وهو يستنشق زهرةَ اللهبِ تتفتحُ في بَهْو الأفقِ على بعدِ رنَّـتَـيْـنِ من مسبحة فوقَ معصمٍ يكادُ يُضيءُ...

يستحضرني الإطفائِيُّ عندما يُطوِّقُ الفلاسفةُ رأسَهُ بعمامةٍ من فتيل.. ثمَّ يُفتِّشُ في أظافري بحثًا عن بذرةٍ للجرْح!

يا لها من وثْبةٍ نحوَ النفقِ..

ما زلتُ أسترْضِي شراعًا بعد آخر.. ولكنَّ البِحَارَ لا يبدو أنها ستقبلُ بمصالحتي على مَهْرٍ أقلَّ منَ الغَرَقِ.

36

رُقـيَـة لحروفِ العلةِ..

تهْ كالغيوم ولا تهتدِ كالنصالِ.. فخلالَ تيهكَ سنكملُ ما تبقى منَ غياب.

قال ضاربُ الرمل..

نشأنا بأسمائنا أفعالًا تُخَاصمُ الخرسَ الأبيضَ في دَمِنا، وتلتحفُ الرملَ "الناشفَ" في جذرنا المـُغصوْصِنِ. بالنسبةِ للتائهِ الأبديِّ بين ملاءاتِ الارتحالِ سيكونُ شفقُ تِلالِهِ وجه مجمرة مطلة من ضباب البخورِ.

في أراضٍ بلا مقصرات؛ يقتبسُ الـمُغنُّونَ مقاماتٍ تتجمدُ بينَ مخارج الصوتِ.. وحدها ألسنةُ الدخانِ تتراقصُ سكرى بنشوةِ الأفقِ في ليلةٍ من ليالي الـمزجّلِ.. فلا يختلفُ إلى مرتفعِ المقاماتِ إلا اثنانِ:

رجل أعياهُ وصف أدبي لإملاق الشفقِ المُريدِ وإسرافِه في أرجوحةِ الترفِ المُهجّدِ. وامرأة تُرْبي حجَّتها بشاهدٍ واحدٍ حكايةً عن ربَّاتِ اليبابِ، وعن "التَّائِهِ" الجريء المُتمرِّدِ على البوصلةِ.. وشتانَ بين التَّردُّدِ والتَّمرُّدِ.

لا ينتهي "الإرمالُ" على حال. فلغة العرَّافِ لا تُعَرَّفُ. وضيْعةُ الدجاج لا تصون الحَـــبَّ.. سُمعَ ذات مرة يقولُ: إنَّ "مياه الدنيا لا يُمكنها أن تنبت بذرة واحدة من دونِ الطينِ". فهل يَمنحُ الطينُ الـمُكرَّمُ زرْعهُ في "قصعة شمامية الحَفن؟" ما تنفكُّ في رؤيا الأسمالِ سِلالاً.

وإمَّا يريبهُ صنمُ الحَالِ؛ استأثرَ للشغفِ بحدوةِ الدمعِ تنزو وجنتيهِ قطراً وشَلَّالاً.

أفرغ الكأسَ بالسُّطوعِ يا سادنَ النَّجْمِ.. و"عَـنِّبْ" الغصنَ؛ فحينَ تختلفُ الظلالُ مضاعفةً حجم أصحابها؛ ويندى مكانُ الوضوءِ، ويسرفُ النسيمُ السَّاحليُّ في تفخيمِ "الكَلْمُوْنَـة"، تَـخْضرُّ تجلياتُ المبدعينَ الـمنسيينَ، أولئكَ الذين لا يريدونَ لحليبِ الخطوِ أن يشيبَ بالعَكسِ، ولا لصبيبِ الدَّوحِ أنْ يحدوَّ لياليهُ المحورةَ بالخُنَّسِ.

لا يزعمُ "التَّائـهُ" أنَّ إشاراتِ حَدَسِه تواترتْ على التغريرِ به ليحثَّ الغاوينَ على البحثِ عن منطق في الفوضى، فلسان الحال أنَّ الفوضى صومعَةُ الشيطانِ.

بيدَ أنَّ هذا التأويلَ هو بجلدهِ ما يروجه أيضًا بائع الطلاسمِ.. ربيب الودعِ ورضيع حبرِ "الجدولِ العاقرِ".

غير أنَّ "التَّائـهَ" لا يعرفُ قراءةَ خطٍّ واحدٍ من خطوطِ كفه، ولا يزدلفُ نَمشَ الإرجاء في خُفِّه. الشَّاعر ليس كذلك فهو أصل الفطرةِ في الإنسانِ، وهو يكابِـدُ بِـرُقيٍّ لا برقية، ولأجلِ أن ينيرَ الدربَ بالأهلةِ والكواكبِ، وأن يجعلها تحنُّ إلى اللَّوذعِ بالمطلعِ.

ضاربُ الرملِ ينثر المزيدَ من بصماته.. لا يرتابُ في ظلِّهِ إلاَّ الطريد.. ولا يضلُّ بين الدروبِ الـمُشمسَةِ إلا ساكنُ المغارةِ.

لماذا يكرهُ الأكمهُ الليلَ إلى هذا الحدِّ؟ بل لماذا يكرهُ الناسُ الليلَ وقد يسفرُ الفجرُ عن ما هو أسوأ من الظلامِ!

يقولُ ضاربُ الرمل إنَّ "التَّائـهَ" لا يجيبُ عنِ الأسئلة الـمُبَسْترةِ ولا يعزفُ في خَزَفِ اللحظةِ النَّـيِّـئَــةِ.. ولا يذَخِّـرُ غليُونهُ بأدواتِ النَّـفي ولو أمضى عمرَهُ خصيمًا للمتاهاتِ المعتمةِ والبينــَةِ. إنَّ مهمتَـهُ أن يبقيَّ على الرمضاءِ دونَ الاشتعالِ.

غار النجمُ على "التَّائـهِ"، وفي أوديةِ التيهِ لا أحدَ يسألُ عن العناوينِ.. فالمتاعبُ تأتي بنفسها وغالباً لا تأتي فرادى.

ضاربُ الرملِ يشتبه في الحصى.. وفي بصماتِ أصابعهِ على التراب، ولهذا فهو يَحثو ليطمسَ ما تركَ من أثر حتى لا يشهد الأفقُ على التفاصيلِ..

قبلَ ذلكَ تحدثَ بثقة زائدة عنِ الـمُغيَّبِ الذي استحضره في قبضة من الرملِ.. قال: "هناكَ خطًى صفراء تلثمُ الشوكَ؛ وملامحُ التِّلالِ تتبدلُ. "الطفل الأحمر" يفترشُ حصيرًا من الأراك. ومن حولهِ بقرة الـمَغيب. والمرأةُ الـمُحدِّقةُ في طبقِ الهبيدِ تتَعرفُ بمستوى النبيذِ في وشم الحنَّاءِ الـمُخْبـِـتِ في أصابعها.. أما الرجلُ حاملُ اللثامِ الأزرقِ ففي يدهِ دلوٌ من النُّورِ وفي يقينهِ أنَّ لليومِ الـمُغْبَرِّ خصلتينِ على الدَّهرِ ما قلَّمَ رداءهُ.. والخير كالشعر لا يكثر بين الناسِ. والقيعان التي تحجبُ الرؤيةَ سياطُ الرمزِ في بقيةِ المعنى".

هكذا كانَ ضاربُ الرملِ يتحدثُ حينَ تغيضُ أصابعهُ في الرملِ الناشفِ.

37

قلتُ يا "ديبة"؛

في زمن يتوردُ تَـنجيماً؛ يأملُ أهلُ الحقيقةِ أن تَخبوَّ زهرَةُ الترياقِ.. فما لي وللناسِ وهذه ومضةُ الريحِ تستبسلُ على رجيعِ الرمثِ.. نعم. لقد كنتُ أرى العشَّ المليءَ بالودعِ وقرونِ الوعلِ و"تَـزَلَّـميت" الوصلِ وحرز النصلِ، ولقد كان لديَّ أملٌ في تطويبِ قوس قُـزح في احتفاليةٍ فلكيةٍ لا تتعثرُ في التَّـشريقِ..".

يا "ديبة"؛

آثرتْـني البيدُ في البدءِ.. ثمَّ بايعْتُ المدينةَ في حَانةِ العرافينِ.. سعيتُ إلى تدْليكِ شقوق قدميَّ بـ"كريم الخزامى"، وإطفاء شعثي بدهنِ الحوتِ، وإرواء ظمئي بالكوكا كولا، وغسل عرقي بماء الوردِ.. لا يهمني لسانُ المقيم بسفح اللعناتِ، ومآثر النضال وأبطَال الكلماتِ، تركتُ للقفرِ كلَّ مخيطٍ يغزلُ صوفَ الأرواحِ المكسورةِ في "هوائها

الراكد".. وغضضتُ طرفي عن كلّ مُريدٍ في "صرحِ التنجيمِ" يُفتي خلطَاءَ الجنِّ ويفرغُ عليهم من ريقهِ هدْماً، ومن صبواتِهِ ردْماً.

يا "ديبة"؛

دحْرجْ سُفنَ الثلجِ التي نحتناها في الشتاء القارس؛ فقد آن لها أن تذوبَ تحت الشَّمسِ.. ولا تجزع عليَّ، فقد "بازيتُ" الـمَوجَ ببحرهِ، والجلدَ بظفرهِ، والكلامَ بشعرهِ، والليلةَ بأختها والنهارَ بظهرِهِ، والردفَ بخصرهِ، والحقلَ بزهرهِ، والخمرَ بأمرهِ، والسحرَ بسحره، والسرَّ بسرهِ.

لقد وترتُ فنَّ الزَّجَلِ، وأغويْتُ اللونَ بالشكلِ، وما يزالُ "الرجل الصالحُ" يردد: مقولةَ "الظلّ بالظلِّ والليالي بيننا".

حدقْ؛ فرسْمةُ "الرجل الصالحِ" تحتاجُ قارئًا تشكيليا من وادي عبقرَ.. في الرسمةِ يجلسُ شيخٌ بين تلامذته، يحني وجهه قليلاً إلى الجانبِ الأيمنِ باتجاه الشمالِ الغربيِّ، فيما تنسابُ خصلات شعرهِ من تحتِ عمامتهِ الـمُدوَّرةِ بلفتينِ من "التاج".. وقد شرعَ في الفصلِ بين ضرتينِ.

وأنا أجيبُ، من "يهمه الأمر" طبعاً، بما هو "مصروف عن ظاهرهِ وباطنهِ"؛ وأعجبُ لسوء حظِّ الأخطبوطِ الذي لا يعمل بتعدُّدِ الزوجاتِ برغم أنَّ لديهِ ثلاثة قلوب.

كما أنَّ دمه أزرق كماءِ البحرِ وكرداءِ السماءِ وليسَ مثل هذا الدم "المحروم" من ثمرة دموع السماء: بقلاً وقثاء.

وفي الرسمةِ تخفقُ السبحةُ بذلك الإيقاعِ الرهيبِ، الإيقاع المُخْبِت في توزيعِ الزمنِ وتعبئته بأنفاسِ الطهرِ، تلك الموسيقى الفقيرة أثرى في المعنى، وأسرع إعطاباً لزجاجةِ البوحِ.

عاد رسامُ اللوحةِ ليضيف تفصيلاً غريباً، فنثرَ "دواة الحبرِ" لتبدو وكأنها كومة أشواك. الكتابة بالشوكِ ظلت حكرا على كبارِ المريدينَ العارفينَ بأسرارِ الأشجارِ وروحها المُخْضَرَّةِ من إثمِ المسعى نحوَ جَرَّةِ الخُلد.

وعن شمالِ "دواة الشَّوكِ"، في اللَّوحَة دائمًا، يجلسُ طفلٌ مُحَدقاً نحو غلافٍ جلديٍّ لكتاب "رأسِ المالِ"! أما في خلفيةِ اللوحةِ فتُوشكُ قَريةُ النَّملِ أن تُزَاحِمَ ظلَّ الجُعَلِ.

يحارُ أهلُ الحقيقةِ في القدرةِ الأخطبوطيةِ لمتنوري ما بعدَ "رأس المال".. ويجري السؤال مجرى الدمِ. فالشيطَان بضاعةُ الليبراليينَ، عفا الله عنهم.

من كانت المخاطرةُ رأسمالهِ فلا تخيفه حفرُ الدربِ. والماشي على الريحِ لا تشتعلُ شمْعتهُ.

يا "ديبة"؛

لا تنجِّم الكأسَ بروحٍ فقاعيةٍ.. سيحملني جُرحي بينَ ضِفافهِ المُصْفَرَّةِ. وسيَمْنحُ لي تلة في زحامِ المنخفضاتِ لأصرخَ بروحِ مدفأةٍ شمالَ الشتاء.

راقبتُ كأسَ الخيبةِ، في نصفها المملوءِ بالرملِ تتمرغُ الحظاظاتُ.. ورأيتني في بُستانِ النعناعِ أعطِّر خطوَ "الرجلِ الصالح" المفعمِ بتنهيدَة ثملة تكادُ تدربنُ شقوقَ الطين. وهل يتشقق الطينُ من بلل.. وهل يتشقق الطينُ إلا من عطش!

تلكَ سيرة لا تُقيّدُ الخَلَّ في خِلّها ولا تُحرّرُ "تيمةَ الثمل" في كحلها، ولا تربط إزارها بمخيالِ الفجرِ الفـاترِ..

عندما تُسفرُ البيَناتُ الطينيةُ ستجدُ "الوجهَ القويَّ"، الذي أذهل القناع، وقد اختبلَت قَسَمَاتُهُ في اللاجب والنيسب. فباتَ يراقبُ الجَبَلَ الهاجدَ... لعلَّ وعسى... هيهات.. الدمدمةُ في الدمدمةِ.. تحجَّر النَّهرُ في صمتٍ؛ وفي رِئتَيْهِ نُفِّلَتْ صَلَوَات الرفسِ في الرفدِ.

38

الكتابةُ بالزجاج تجرح قداسة اللغةِ.. وهي نقيصَة لسلطةِ العقلِ.

لقد ردَّ أبو تمام، طيّب اللهُ ثراه، على "الناقدِ البقريِّ".

أما أنا، فلن أنفخَ الروحَ في الفقَاعَاتِ الفاقعةِ.

لهذا سيكون الحديث عنك وعن الجبل والشعرِ.

عينان تغرقانِ في غفوةِ منزوعة الحلمِ.. تبصرانِ المحتملَ الهابطَ في منتصفِ الوهمِ.. التُّـراب الموسومُ بالريحِ، والكفُّ الغريفُ بنبضِ موجٍ تبخرَ في النسيمِ العابرِ... أخبرتك كيفَ أخبرني البحر عن البحرِ فحدَّثَ بمجدافٍ وسارية وشراعٍ، وشاطئٍ لا وجود له. وزادَ إغواءَ حاستي التشكيلية بمدحِهِ منحوتةَ الغَرَقِ.

يضمَحلُّ البحرُ في المفرداتِ الفقيراتِ. ليسَ للنوتيِّ أن يهجرَ شراعهُ، ولا أن يترك أغانيهُ المختزنةَ أحلامَهُ ويراعَه. سيصعدُ النوتيُّ يومًا إلى

"تَـلةِ القمرِ"، لن يطعمَ الصنارةَ لذاتها، سيبحرُ لا محالةَ ولن تخذله أروقة الغيمِ، وسيغني في أعالي البحرِ أغنيةَ العودةِ.. "جبلُ الموجِ أسرع، جبلُ الثلجِ سلالةُ الخفوتِ. مشاعر بحَّار ذخيرة تلقيم في حاناتِ الشارع المهجورِ".

قادمٌ من بطاحٍ لم تنبطح للعُشْبِ شبراً و لم تعرفْ من دونهِ ستراً.. بحثاً عن "مطلع" في الجبلِ التيرسيِّ، الجبل المـُنحني باتجاهِ الناظرِ. يحثُّـني التاريخ على مصالحةِ المكانِ. ينصحني بالحوارِ مع الأقنعةِ لا الشخوص، ويسكبُ بصمةَ ظلِّي في رحلةِ الخيمة والغيمة.

فاجأتني حياةُ الجبال؛ أعجاز ضخمةٌ منغرسةٌ في الترابِ، ورؤوسٌ تَـتعمم بالسحابِ، وتؤثثُ المشهد الخلاب بملاعب للنسورِ، وخصلاتُ العشبِ المتدليةُ من الصخرِ تنشد للوعلِ في سفحٍ لا كفيف ولا حسير.

ما من شيئين يتشابهانِ أكثر من الجَبلِ والشّعرِ. سأغضب إن سألني "ناقد رمليٌّ" بعبارة "كيف!".. "بيِّـن لنا لطفَـه وحنانَه؟".. عليك النظر حيث يحتضنُ الجبل بيض العصافيرِ، حيث يجودُ بكلِّ قطرة ماء تلـمسُ كيانَـهُ المهيبَ.. حيث تلك الغرابيب في خشوعها الصوفيِّ مع الأبدِ أسطورة وتسطيرًا.

للجبلِ وللبحرِ غنّـيْتُ... أما كيف فإنَّ التفاصيل لا تلفها مِلحفة في رفرفة.

لا تنفجرُ اللغةُ في مستوى الوُعورةِ. أعودُ إليكِ متعبَ التعبِ، مهزومًا في المعاركِ التي وقَّعْتُ على خسارتها قبلَ اصطفافي في الخرائط محاذياً شفرة النَّصِ.

دمْدَمْتُ على خطوكِ.. كان وقعاً يزمزمُ بين الربى والصبا والرئيّ المجتبى.

أسألكِ الصعودَ إلى الجَبلِ.. أسألكِ البقاءَ في القصيدةِ.

أدمنت كلماتِي الـمُرائيةَ في عالم ملوَّث إغوائياً. كم مرةً قلتها و لم يسمعني أحدٌ.. "القمر أوُل مفردةٍ شعرية في تاريخِ اللغةِ"، كانَ الجبلُ المحفورُ في ذاكرةِ الدليلِ هو المَكان المنقَّى بطهر الحلمِ.. أفهمكِ بعدَ إشراقةِ الصمتِ؛ راودكِ سرابٌ أعزب، في تخومِ الروحِ، والزمنِ النطيحِ، في يرقاتِ المجدولِ الغامقِ الذريح.. عندما يصبح السقفُ مريدَ الريح، ألملمُ حقائبَ البذرِ حتى لا نُـكررَ الرحيلِ الذي يبدأ من خطيئةِ القطفِ.

سأرقيكِ بقصيدةٍ يوماً ما. فليكنِ التوقيع بأظافركِ.. فقد أصبحُ وكيلَ اللغةِ في عقد قرانِها على الشعرِ.

كل التعريفاتِ التي وضعوها للشعر وضعوها في غيابِــكِ. كنتِ سيدةَ الصّمتِ، الذي يملأ الدنيا صخباً أزرقَ. صخباً يتناكرُ بينَ المقاماتِ المتوردّةِ في لفافةِ وترٍ.

هل غنَّاكِ "طائرُ اللهب" رماداً؟

أنت التعريف الحقيقي للشعرِ.. و"عيناكِ نقطتا نهاية".

وعندما لا تحتاجين إلى هامشٍ، هذه سيرتي الذاتية.. أنا الصوفيُّ الأخيرُ. صومعتي حانة الشظف، وصلاتِي بيت القصيدِ. فلا يفتنكِ دعائي ولا تَخصفي الدنيا بأشلائي مهما زعموا أنَّ قصائد الدنيا لا تجبُّ شهرياريتي! فالزعم الهلاميُّ نية زئبقيّةٌ وتهمةٌ "رئبقيةٌ". اسمعيني في حيِّزِ ستائريٍّ.. ظلّك أصلٌ أفرغ البحرَ والمدادَ لتُسرفَ الرجعياتُ العابرةُ للشغافِ.. إنَّ ظلالَ الكريمِ تهتزُّ.

لن أخبرَ فقهاء اللغةِ بما عليهم فعلهُ لمقايضة الكلماتِ التي نستغفلُها بــِضمير غائب. فظلُّ الدميةِ أفصحُ من دميته. وظل الملح ماسخ. وظلُّ الزنابقِ لا يفوحُ عطراً.

تمسكي بصُوفةِ الحرفِ.. فعادة ما تذهبُ الإبرُ وتبقى الخيوط هي التي تحكم النسيج.

39

ذات مرة؛ استيقظ المراهقُ "الدَّمَّـلكاوي"، نسبة إلى حي "دَمَلْ دِكْ"، منتصف الضحى كعادته. نظر حولهَ بحثاً عن بقيةِ "الأقمارِ المظلمةِ"، الآفلةِ في السريرِ من حولهِ.. كانَ رفاقُه في شلة "الأقمار المظلمةِ" من أشهرِ المجموعاتِ الثقافية في "الحي الشعبي" المعروش.

سارع الخطو نحوَ محطة باص الساعة العاشرة، كان يوم أستاذ اللغة. ذلك الرجل الطويل النحيل، المميز بتسريحةِ شعرهِ المخالفةِ لذائقة الريفيينَ.

كان أستاذا دائم التغني بصدام حسين و"تشي غيفارا" و"هوشي منه"، كان يرى في سيجارة كاسترو راجمة صواريخ، وفي كوفية ياسر عرفات روحا معطرة بأريجِ زهرةِ المدائنِ، كانت نظرة أبي جهاد متطابقة، في عينيه، مع إلياذات سميح القاسم ودرويش وعز الدين المناصرة.

وصلَ متأخراً لا يعرف هل سيفوز بيانصيب إيماءة الدخول. فيتغمدُ عذرُهُ سيفَ الطرد أم لا. "متى صحوت؟". "الآن أستاذي". "هذا حالك ونحن نحمد الله أننا في مدينة بلا حانة ولا خمر... فكيف كان سيكون أمركَ لو أنكَ ولدت مثلا في عاصمة ما وراء البحارِ!؟". "ما كنت لأخضع لاختبار عن اللغة في شعر الصعاليك". "جيد.. بماذا جئتنا اليوم؟".. "ليس طويلاً.. إنشاء حفظتهُ عن ظهر قلب".. "لا تكذب أيها الصعلوك الفقير.. لا تملك ثمن دفتر وقلم.. هذا ليسَ عيبا..". "أستاذي.. في الفصل بنات". "هيَّا اقرأ إنشاءكَ فتلميذاتي لسن سيئاتِ الحظِّ"... قالت التي بيدها الحِنَّاء: "لا تسمع منه، جاء ليشوِّش، هو مشاكس خليع، ماجن ومجنون".. قلت: "هذه أطيب صفاتي. ستر الله عيوبي، لا إثم عليك من "شحوب الحق بجسمي".. ما تنكرتُ يوما لآدميتي.. النقيصَةُ رأسمالي، وأنت أيتها التلميذةُ لغةً، الأستاذة تشكيلاً، ما أرى "الهذليَّ" ليكيلَ "دم إخوته" بألوانِ الشفقِ في ملحفتكِ..".

تحجرت شفتا الأستاذ وهو يقول: "هيَّا اقرأ إنشاءكَ".. قلتُ: "لتسكت عنيِّ "بنت شعواء" لأسترجع ذاكرتي..".

ثمَّ أسمعتهُ ".. في المدينة شاعرٌ يريدُ أن توجدَ لغة جديدة.. يريد أن تجدد اللغةُ دمَها وتُسنِّنَ أظافرها، وتكسوَّ عظامها وجلدها الذي كشطَته القواميس.. هو متمرد شغوف.. دمعهُ "**بصيلِ**"، نسبَة إلى

البصلِ، لكنَّ حرفه "بطيس".. يريدُ لغةً تحثو من الريشِ على الصخر فيتجنح حتى "يُبَلبِـلَ". همَّـتهُ ومهمَّـتُهُ لا تذوبانِ في أضغاثِ النفسِ.. يريدُ أن تغترف نجوم الليلِ من ضيائها في الأوردةِ الثيب فلا تخشى ملوكَ النحوِ وسلاطينِه.. إمَّا أنْ يشرب من مرقٍ بصيلٍ وإما أن "يحملَ عليه الملح"، وتلك لعمري خزينة "ياءات" و"واوات" مفقوءة أوزعها سِفْر المسافاتِ في رواقِ الفقاعاتِ.. اللغة يا أستاذي كائن روحيٌّ لا يقبل "التخشب" على المنكبِ.. ومن "يُعَنْكِبُ هذا المنكب" يفتعلُ ذلك باسمِ القاموسِ الشعريِّ الفولاذيِّ الذي لا يزهرُ الشرارات قدحاً ونفحاً.

أيُّ لغة لموسم الظلمةِ في مفازةِ الدخان!

جاء الليلُ لتقدح الانطفاءاتُ أرواحَها المُعذبَةَ فتشرق بينَ أفعالٍ لم تُرقَّمْ، وأسماءٍ لم تُنوَّنْ، وأحرف لم ترسنْ.. لتلحظْ فضيلَتَكَ أنَّ لغةَ الشعر حرة لا تَتَقيدُ ولا تُقيَّدُ مهما اكتسحَ الوثنُ مساحةَ المناورة بين اللب وقشرته.

الناقد الريفيّ، وصيّ المسار المُطوّبِ بعقيدةِ وعقدةِ التراجعِ.. وإنَّ الرضى عن وجوده بمثابة الاحتفال بـ"ولادة مقصلة".

اللغةُ المتجمدَةُ تمثلُ ذروةَ النسيانِ المتهافتِ..

سوف أعيد الثمار غيماً، والليلةَ فجراً، وأدمع الينابيع نهراً، وأغوي المرايا حتى تتشبهَ بالرائحة البيضاء، سأختطُّ سبيلي في البحرِ موج بركان، فإنها لا تتحرك قبل أن "يفور".. قد تطفئُ الرمضاءُ تيهَ الخُطى، **ويعبرُ** من شيَّدَتِ النارُ جسورَهُ.

المفردَة المرمَّدة هي نبيذ النصِّ الآتي من ثمرةِ المعنى والعائد إلى المعنى..

بحّتْ خطايَّ بالمنزلقِ، وقد أبلغتُكَ أنَّ العلةَ بالقدم لا في النعلِ.

هل فهمتَ يا أستاذي.. أم أنك ما تزال "ناسك النسيانِ".. تلميذاتك حسنات الحظِّ عكس اللغةِ الـمُغبرة من ندرةِ الكَـرّ".

40

ودِدْتُ ذات تهويم أن ألتحق بكتيبة من أرباع المثقفينِ. أو أخماسهم أو حتى أشباه ظلِّهم بالوصيدِ. كنت أخاف من زمرةِ وجوهٍ حمَّالة أقنعةِ. رأى قريني أنَّ الأمرَ مستحيلٌ.. خيارٌ نصف منفوخ على شمأل النوء.. فالكأس التي "كسرْتُها" ما تزالُ فقاعاتُها تتمددُ في آنية أجمَرها نزغ الرمضاءِ. أقسمَ أنهُ رآني من خلالِ مرايا العبلة الضافرةِ.. ابنة عمِّ النعناعِ.. وإنهُ استخلصَ "الإيقاع القرني" من "كباش" الوعولِ، وكان أنفهُ على مترفةٍ من دخانه النزيفِ بمليار لونٍ، ورائحة تستعمرُ أنوفَ سكان "الوادي الظليلِ".. بينَ سدرةِ اليمامات الزرقِ، وزريبة العجولِ الحنيفَةِ.

لقد اعتذر عن رفس مسافة أبعد من "مَشْرقي الكمَّام". وتحجَّج بأنهُ مصفد.

استبصر للذاكرةِ من قبل سنواتٍ.. فوصف شلال "كرونتوم" مستحضراً عبقرية الرائحة في المناطق المطيرةِ، ثمَّ عيّرني بضعفي حين

راودتني نسماتُ "الهكري".. وما يزالُ "حليم النخلِ" يسورُ أطروحة التخيلِ والتنخيلِ. الناسُ هم الناس في قراءتي الودعِ والرملِ. المسرفون في النظراتِ المُزرقَّـةِ في **آيب الخلفِ**. يقول لي إنَّ الترفَ صفة مدنية. والشظف صفة قِفارية. كم أتعبتني الجدليات الرأسية والذنبية، ودعوى الجاهلية، وحرز الدّيـمِ التتارية. أما الحلم والرؤيا فهما من صفاتِ الِحرفيِّ غير المتحرفِ إلى نزالِ الشكِّ.. يحتمل أنهُ، لا حاجة للطوفانِ، منذ استخلفَ الرقرقةَ على خطيئةِ تزميرِ الشفاه الغارقةِ في ارتفاع منسوبِ النُّضوبِ.

ذلك النضوبُ الأكثر امتلاءً من حيرتنا؛ الأقلَّ دندنةً من فراغ القلوب، هو المتشح بقاماتِ "الـمُضَبِّبين" المستـغفلينَ الحيرةَ في أفقِ تغاوى باللغوب.

ولكن لا عليكَ.. سنَــّـنْ سكينَ صبْركَ يا قرين!.. فالمدنُ نصفُ الـمُكتالةِ قد توهمك أنها تسوّرُ تماثيل الظلِّ بمشروع رصيف، وسيخبرونكَ أنَّ الخطوَ كفيف الأظافرِ لا يبلطُ مساراتِ الزمنِ. أما المكان الخليُّ فلا تُـفرشُه إلا أدمُع المزنِ.

آثرتكَ في "نصيِّ" على ثلاثة أحرف، وقد نتحدث لاحقا في عدد النقاطِ... فالمسافات حولَ السطورِ غالبا ما تكونُ لوثة إضاءات. أتراني أشتغلُ على إيصالِ رسالة التمويه التي لم تصل "البابليَّ" عندما تولى "أبو تمام" بريد الموصل؟

أيها القرينُ الـمصفَّدُ إلى حين؛ أتذكرني على ربوة "الميمون" أنحتُ تماثيل الجمالِ من الرملِ الجافِّ؟ ثم أترك للريحِ متعة تذويب ثروتي التشكيلية في الهواء!؟ أتنساني أنحدرُ وراء شياهي، أتجاوز "ذات العكاب" لأدرك الظلَّ شاباً في "وادي الشقارى"! ويا لعزِّ الذاكرة عندَ بلح اللحاظِ الـمُؤبَّرَةِ!

مجهدةٌ هي حُلَّةُ **النحيلِ**.. لعلَّ صلة الندى آتية لتذهب وعثاء الزمن الـمسائيِّ الـمتخمِ بالعشياتِ والشَّعثِ.

يستدلُّ بيَّ الأكمهُ ليستبصرَ نحلةَ النورِ.. يرددُ بصوته الـمُتعثّرِ "إنَّ معشرَ الـمنومينَ يبيعونَ من الوهمِ أكثرَ من حاجة الشيطانِ". يردُّ عليه القرينُ "متى بصَّرتَ ضبابَ البطحاء؟".

لم أعرف من التمر غير تلكَ الرائحة الـمُتَسلّقة.. والربى التي ترعرعتُ عليها تغيرت كثيراً في الشكل والطباعِ.. لقد انتهز الزمن فرصةَ الجفاف لإجبار تلالي الرملية على التسمين القسري.. صارت أكبر وألـــيَنَ. أما على مستوى السهولِ فها هو المكانُ استسغبَ من شدةِ النّسفِ.

ومع ذلك ما زلتُ أغنيِّ بقيةً من الهدهدِ.. وقد أسامرُ ذات ليلٍ بما يطفئكَ في القمقمِ.. ولو أحضرتَ الحجةَ في طرفةِ عين. فلا تنخدع

بما في الناسِ من لين، فكم من ظلٍّ أخلفك القيظَ، ومن وعاءٍ دلاكَ فيهِ طلسم الحياةِ.

غنيتُك في عنقٍ مسورةٍ برعَافِ ريشتي.. غنيتُك في اللونِ والرائحة، في الثمرة والجمرة، ونبَّلتكَ في اللب والقشرةِ، في التيهِ والشظفِ، في السنوات النمالِ، التي تقتل فصولها من إملاق... فهل ما تزالُ أحلامكَ ضنينة، وخطاكَ ظعينة وجودية!.. أسألك فحسب.. ولا أثخنُ في السجوفِ بين الفواصل.. فوترْ لحنكَ لأجلِ شامة على خدِّ الريح.

سيرة ذاتية

المختار السالم

- الفائز الأول بأول جائزة رسمية للصحافة في موريتانيا 2012
- فائز بجائزة الدولة التقديرية للآداب (جائزة شنقيط) 2020

أحد أكبر الشعراء الموريتانيين المعاصرين، ورائد أدب ما بعد الحداثة في موريتانيا.
أحد أشهر كتاب كلمات الأغنية الموريتانية الحديثة.
أحد أكبر الكتاب الصحفيين الموريتانيين (إنتاجا وإدارة).

- المهرجانات:

– مثل موريتانيا في عدة مهرجانات شعرية وثقافية في الوطن العربي:
(مهرجان "المربد" 1989 – العراق،
الجنادرية – السعودية 1995
مهرجان نواكشوط الدولي للشعر 2006
المعرض العالمي للكتب في الشارقة 2019... إلخ).

من أعماله الأدبية:

1. ديوان: سراديب في ظلال النسيان (صدر 1999 – نواكشوط (طبعة أهلية).
2. موسم الذاكرة (رواية) – طبعت 3 مرات: 2006 عن دار الشروق (الأردن). طبعة ثانية 2013 دار القرنين (موريتانيا). طبعة ثالثة 2015 عن دار لارمتان (الفرنسية).
3. ديوان: القيعان الدامية (صدر عن دار الفكر – بيروت 2009. (منشورات اتحاد الأدباء والكتاب الموريتانيين).
4. وجع السراب (رواية) صدرت 2015 عن "دار القرنين" بنواكشوط.

5. ديوان: هذا هو النهد الذي اعترفت له (صدر في باريس عن داري "دفاتر ملارمي" و"لارمتان" 2016).

6. ديوان: "البافور" (أول ديوان من الشعر النثري يصدر لشاعر موريتاني) صدر 2016 عن "دار القرنين" في نواكشوط.

7. ديوان: يأتون غدا! (صدر 2017 ضمن سلسلة "إبداعات عربية" عن دائرة الثقافة بالشارقة في الإمارات العربية المتحدة.

8. ديوان: قرين القافية (صدر 2018 عن دار (E-kutub Ltd) في لندن.

9. ديوان: زمن الأنفاس المهجورة (ثاني ديوان موريتاني من الشعر النثري) – صدر 2018 في المغرب.

10. التغريبة (تدوينات) – صدر 2018 في باريس.

11. في ظلال الحروف (مقالات نشرت في الصحف) – صدر 2019 عن دار (E-kutub Ltd) في لندن.

12. ديوان: "السالمية.. الشاعر والقصيدة.. الذكر والأنثى": صدر في طبعتين: صدرت طبعته الأولى عن "نيوزيس – منشورات فرنسا" باريس 2019، وصدرت طبعته الثانية 2020 عن دار (E-kutub Ltd) في لندن.

13. رواية: "الدابة... أو رياح شبح" (مخطوطة). فازت بجائزة شنقيط للآداب عام 2020.

14. رواية: أسنان الجرح (مخطوطة).

15. رواية: مهاجر غير شرعي (مخطوطة).

16. مجموعة قصص قصيرة (نشرت في صحف موريتانية وعربية).

العنوان:

رقم 589، حي 13 ب "عرفات" – نواكشوط – موريتانيا

ص.ب: 371

الهواتف: 22418488(00222) و42002220 (00222)

البريد الإلكتروني:

elmoctar@gmail.com

elmoktar@gmail.com

WhatsApp :0022242002220